1057

HARLEQUIN

١٠٥٧

دار م. النحاس

عبير

رجل البراري

ميراندا لي

www.elromancia.com

مرمورية

رجل البراري

ميراندا لي

عندما ظهرت أدريانا من بين حطام طائرتها وسط الصحراء الاسترالية، كانت تعلم أن حياتها تحطمت كذلك بأكثر من طريقة. أوضح بريس ماكلين ذلك عندما وصل لينقذها كما كان يفعل الفرسان في العصور القديمة. فجأة بدت الحضارة بعيدة جداً عنها.

مستقبل أدريانا المهني، خطيبها... حياتها كلها... كل ذلك كان في انتظارها في سيدني. لكن هنا في الصحراء النائية، أغواها هذا الراعي بطرق لم تتخيلها قط. يائسة، حائرة، وتائهة في واحة من الرغبة، كانت أدريانا تعلم أن الوقت الذي سيمضيانه معاً كان جزءاً من عالم الأحلام.

وضعها بين ذراعيه

سألته بصوت أجش: «ماذا تفعل؟» وهي تحاول التقاط أنفاسها متجاهلة طريقة وجودها بين ذراعيه، فإحداهما تلتف حول خصرها والثانية حول رجليها.

فأجابها مبتسماً: «إنتظري وسترين.» ثم أخذ يتمشى على طول ضفة النهر التي تتميز بلون رملها الأبيض الذي يغطيها. تجمدت أدريانا بين يديه ثم بدأت ترتجف.

فقال لها مطمئناً: «إطمئني، فلن أوقعك.»

ميراندا لي

ميراندا لي هي استرالية تعيش بالقرب من سيدني. ولدت ونشأت في الغابة. تعلمت في مدرسة داخلية. ثم اتبعت ذلك بدراسة مختصرة للموسيقى الكلاسيكية، قبل أن تنتقل إلى سيدني لتدخل عالم الكمبيوتر. تعيش سعيدة مع زوجها وبناتها الثلاث. ابتدأت الكتابة عندما ألزمتها شؤونها العائلية بالبقاء في المنزل.

تحب كتابة الروايات الواقعية العصرية والعاطفية. هواياتها تشمل قراءة قصص الأبطال القدماء، وحل رموز الكلمات المتقاطعة ولعب الورق. ومشاهدة الأفلام السينمائية.

عبير ١٠٥٧

Abir 1057

رجل البراري

ميراندا لي

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

كانت الطائرة الصغيرة «سيسنا ١٧٢» ذات اللونين الأبيض والأحمر جاهزة للإقلاع عند نهاية المدرج، في داخلها الطيارة الوحيدة تنتظر إشارة المرشد. وبعد ما أتم هذا الأخير عمله، نظر إلى تلك الأنثى نظرة اعجاب أخيرة وطويلة.

لقد رآها تتوجه نحو الطائرة مرتدية بنطال بيج وبلوزة ذات لون أصفر فاتح. لم يكن ممكناً لأي رجل الاّ أن يبهر بجمالها، إذ أنه يمكن ملاحظته حتى من مسافة بعيدة. هذا بالإضافة إلى عنصر الإثارة الذي يوحي به شعرها الأشقر المنسدل على كتفيها.

وبما أنه يستطيع الآن ان يرى وجهها عن قرب، فإنه أخذ ينظر إليها محدقاً في تقاسيم وجهها الجذاب إلى أنفها الدقيق، وشفتيها البارزتين المثيرتين، وإلى تلك العينين الرماديتين، اللتين حدقتا به بانزعاج قبل أن تحجبهما النظارة السوداء.

تحرك المرشد من مكانه متمتماً ان المرأة لا يمكنها أن تقوم بالأمرين معاً: إذ أنها إذا أرادت جذب الرجل إليها، فإنّ عليها كذلك الإستجابة له!

تنفست أدريانا وينسلو نفساً عميقاً وهي تفكر بانزعاج في أنها لم تكن تريد التوجه إلى آيرز روك. فالإستمتاع بمشاهدة المناظر الطبيعية لم يكن في حد ذاته هدفها بعد

ظهر ذلك اليوم، فهي كانت سعيدة لمجرد فكرة الطيران ليس أكثر.

غير أن الإدارة كانت قد طلبت منها أن تضع برنامجاً للأماكن التي ستتوجه إليها ذلك اليوم. فقدمت برنامجاً كالتالي: من أليس سبرينغز إلى آيرز روك ثم إلى الأولغاز، وبعدها تعود إلى أليس سبرينغز.

أمر في غاية البساطة.

لكن لم تكن الأمور بالنسبة إليها بهذه البساطة. هذا ما اعترفت به ادريانا بينما كانت تنظر بشرود من النافذة المحاذية لمقعد الطيار.

أجل لم تكن الأمور كذلك لأنّ عرض آلان الزواج منها الليلة الماضية قد فاجأها. وهي تحتاج إلى الوقت لتفكّر في السبب الذي يجعلها تقبل هذا العرض بينما كانت قد اقسمت بألاّ تتزوج. أبداً لن تمنح أي رجل تلك السلطة على حياتها!

عبست أدريانا حين تذكّرت رد فعلها الأول عندما طلب آلان الزواج منها. لقد ذُهِلتْ لدى سماعها ذلك، إذ لا بد أنه كان يمازحها، فهو كان متزوجاً من عمله!

لكنها أدركت بعد قليل من الوقت أنه جاد...

لماذا؟ بدأت تتساءل. لماذا الآن؟ بعد ثلاث سنوات من كونهما حبيبين؟ لا بد أن يكون هناك سبب. فلطالما كان لديه سبب لأي عمل يقوم به.

فهي لا تزال تذكر تلك الليلة التي تحولت فيه فجأة علاقتهما الأفلاطونية إلى علاقة حسية حميمة. وذلك حين دعاها إلى العشاء للاحتفال بعيد ميلادها، ومن ثم، وبدل أن يودعها عند الباب، طلب الدخول.

لقد أحسّت بأن إغواءه لها كان متعمداً. غير أنها كانت تقاوم... لكنها كانت تشعر بأنّ عقلها وجسدها لم يكونا مليئين بالأحاسيس بلا سبب... فقد تجاوبت معه من خلال تصرفاته التي اجتذبتها.

لم تستطع أدريانا أبداً أن تكتشف السبب الأساسي لكل ما يحدث. ربما هو مجرد علاقة فاشلة مع الجنس الآخر. لكن، لأن الأحاسيس المتبادلة بينهما كانت مبنية على الاحترام والود، فقد استجابت لرغبته.

بعد تلك الليلة، يبدو أنه لم يكن هناك ميل إلى إنهاء هذه العلاقة، إذ أن آلان قد أصبح حبيبها، يزورها مرة في الأسبوع على الأقل. لقد كانت علاقة عادية، ويمكن القول انها علاقة فاترة لم تتوقع أدريانا ان تتطور إلى ما هو اكثر من ذلك. غير أنه فجأة، يريد الزواج منها! لماذا؟

فكّرت أدريانا ملياً في الأمر. هل هناك سبب غير حاجة إنسانٍ لمشاركة إنسان آخر له؟ فأدريانا تبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، وهي خلال السنوات العشر الأخيرة تعيش بمفردها، وبالرغم من أنه كان هناك من اقتحم وحدتها، الا أنها تشعر الآن بحاجة إلى شخص يكون معها لوقت أطول. ألا يمكن أن يكون آلان يشعر الشعور عينه؟

فأجابت في نفسها قائلة: أجل يمكن ذلك. وعلى الأقل، لم يكن يريد إنجاب أطفال كما قال هو نفسه.

أغمضت عينيها، وأحسّت برعشة في داخلها عندما أعادت فكرة إنجاب الأطفال إلى ذاكرتها، ذكرياتٍ من الماضي، ذكرياتٍ تفضّل عدم التفكير فيها، ذكريات لا تزال قادرة على إزعاجها بشدة.

www.elromancia.com

«آنسة ونسلو!» صرخ صوت عبر جهاز اللاسلكي، «عليك الاقلاع.»

عادت أدريانا إلى الواقع، فخورة كونها تستطيع قيادة طائرة. ثم أدارت محرك الطائرة وهي منزعجة لأنها كانت تحلم وتتخيل في مثل هذا الموقف. فهي عادة لا تشرد بهذه السهولة.

لكنها اعترفت بأسى بينما كانت تحلقّ في السماء بأنها لم تعد أدريانا ذاتها منذ أن طلب آلان الزواج منها. فهي منذ ذلك الحين مضطربة ومكتئبة.

غير أنها شعرت بعد ثوانٍ من إقلاع الطائرة بارتفاع روحها المعنوية، براحة نفسية. هذا ما تشعر به دائماً بعد أن تقلع الطائرة، عندما تنتقل من الدفء الأرضي إلى الدفء الجويّ.

هل هو عنصر المجازفة الذي يثير فيها هذه الرغبة في الطيران، في الحصول على رخصة قيادة طائرة، بعد أربع سنوات من رحلتها الأولى في الطائرة؟ هل تخفي خلف طبيعة شخصيتها كإمرأة عنيدة وهادئة الطباع، شخصية المجازف؟

لكنها تكره المجازفة في ما يتعلق بحياتها، تكره الشعور بعدم السيطرة على الأمور.

ولعل اكثر ما تحبه أدريانا في الطيران هو ذلك الشعور الذي تحس به بعد الإقلاع، بعد أن يصبح كل ما هو على الأرض بعيداً عنها وتصبح محاطة بفراغ تام من حولها سوى من السماء الزرقاء اللامتناهية. عندئذ تشعر باستقرار فكري وروحي لا يمكن أن تشعر به في أي مكان آخر.

إنه ذلك الاستقرار الذي تحتاجه بشدة في هذا اليوم.

قامت أدريانا بدورة دائرية واسعة بطائرتها ذات المحرك الواحد بحيث تستطيع رؤية أليس سبرينغز بصورة أشمل قبل أن تحلقّ فوق الجبال إلى الجنوب ومن ثم عبر الصحراء إلى آيرز روك.

نظرت من النافذة المحاذية لمقعدها إلى المدينة التي تحلقّ فوقها، ثم هزت رأسها ببطء. لم تكن منطقة أليس سبرينغز كما توقعت. لقد خُيّل اليها أنها مدينة ذات حرارة جوية مرتفعة وغبار شديد، مدينة يابسة وليست بهذه الخضرة، إذ أنها منطقة حرجية في سيدني. لقد كان من الصعب التصديق أنّ هذه المنطقة تقع في قلب استراليا الجاف.

من الواضح أن فصل الشتاء في هذه المنطقة قاسٍ، فنهر التود الذي يكون شحيحاً دائماً قد فاض عدة مرات. ولم تكن المدينة دائماً كذلك حسب قول سكّانها، لذلك أقرت أدريانا أنها لم تكن ترى أليس سبرينغز الحقيقية بالرغم من أن آلان كان محقاً في ما يخص وضع السياحة، وما أكدّ ذلك هو عدد الموتيلات التي شاهدتها ذاك الصباح خلال جولتها في المدينة.

«يمكنك إنفاق الكثير من المال هناك.» هذا ما قاله لها آلان يوم الجمعة الماضي بينما كانا يتناولان طعام العشاء في سيدني. وأضاف: «هناك الكثير من المال لشراء مجموعة من الأزياء الاسترالية الأنيقة لادريانا، سأتوجه إلى هناك يوم الاثنين لأحدد موقع المحل الذي سأشتريه. لم لا ترافقينني وتحاولين أن تجدي مكاناً مناسباً لأحد المحلات التي سأشتريها لك؟»

www.elromancia.com

لقد توجهت أدريانا إلى أليس سبرينغز مع آلان، واثقة كل الثقة أنه لن ينصحها بما هو ليس في صالحها. فهو منذ معرفتها به تاجر قماش ناجح، ورغم أن عمره واحد وثلاثون عاماً غير أنه بالإضافة إلى تجارة القماش، يملك متجراً في كل مدينة وبلدة في استراليا مخصصاً لبيع الألبسة الرجالية الفاخرة.

لقد ساعدها أمس على اختيار موقع للمتجر الذي ستشتريه... في مجمع تجاري صغير ولكنه مهم... وبعد أن اتفقت على قيمة الإيجار، قام آلان بالتفاوض وعقد الصفقة بنجاح. تذكرت أدريانا ذلك بينما كانت تنظر إلى آلان وهو يتفحص لائحة الطعام الليلة الماضية بينما كانا يتناولان العشاء معاً، وفكرت كم هما متشابهان، وكم لديهما من قواسم مشتركة. وفجأة نظر إليها، وابتسم.

هل كانت تساوره نفس الأفكار أيضاً؟ هل كان طلبه الزواج منها هو وليد اللحظة؟

لا تعتقد أدريانا ذلك. إذ أن آلان لم يكن من الأشخاص الذين يتخذون قرارات سريعة.

وعندما مالت الطائرة أدركت أنها ما تزال تدير الطائرة بشكل دائري. تورّدت وجنتاها واستطاعت التركيز والسيطرة على الموقف. من يشاهدها من الأرض يظن أنها مجنونة! أو ربما هي كذلك إذا ما نظر للأمر بشكل أعمق. الزواج ليس لها، مهما يكن هناك من قواسم مشتركة بينها وبين آلان!

وبعد ما سيطرت على الطائرة، قررّت أن تتوقف عن التفكير بعرض آلان للزواج منها لبضع ساعات مقبلة

وتحاول فقط أن تستمتع بوقتها. كان ضمن البرنامج الذي قدمته إلى الادارة التوجه إلى آيرز روك، ورغم كل شيء، يبقى مكاناً يستحق عناء السفر إليه.

لم تستمتع أدريانا برحلتها إلى آيرز روك لأنها كانت تحلقّ فوق أليس سيرينغز ليلاً، لذلك لم يكن في استطاعتها أن ترى ما يجاور هذه المنطقة، وبما أنها تفاجأت بالخضرة الموجودة في أليس سبرينغز، فإنها كانت تتوقع أن تكون الصحراء قد اخضوضرت هي الأخرى. ولقد تفاجأت بما رأته عيناها، فمن الواضح أن المطر لم يهطل في هذه الجهة الجنوبية، وإذا كان قد هطل، فلا بد أن الرمال العطشى قد امتصته سريعاً، إذ أن أدريانا كانت تحلقّ فوق أراضٍ جرداء قاحلة ليس فيها حتى عشب أخضر، ولا شجرة، أو نهر، أو منزل. هذه البلدة هي عبارة عن منطقة مخيفة.

تنفست عميقاً ثم قالت: «يا إلهي، ما الذي أفعله، أحلقّ فوق مكان مهجور؟»

حاولت إطلاق ضحكة لكنها بدت وكأنها صرخة. بعد ذلك حاولت ابتلاع ريقها ولكنها لم تستطع، فقد شعرت باحتقان في حلقها وتوتر في معدتها. وقد أثار هذا الشعور الغريب في داخلها ردة فعل عكسية، فقد أحسّت بغضب عارمٍ يعتريها وأخذت تكزّ على أسنانها.

أخذت تقول لنفسها: لا تكوني سخيفة، فهذه ليست المنقطة الوحيدة التي تكونين فيها في خطر. إضافة إلى ذلك، لقد دفعت الكثير من النقود من أجل الطيران، فحاولي الاستفادة من ذلك.

بعد ما انتهت من توبيخ نفسها، أخذت تنظر بهدوء إلى

تلك الأرض الشاسعة التي تتميز بجمال فطري وحشي وعراقة سحيقة القدم. لكنها شكّت ما إذا كانت ستشعر براحة تامة عندما تضع نفسها في مثل هذا المكان الموحش. وأخذت تتساءل كيف يمكن لانسان أن يعيش في مثل هذا المكان إذا ما نفي إليه؟ وقد كانت أكيدة من أن الموت سيأتي هذا الانسان ببطء وألم شديد.

لذلك فضّلت أن تركزّ نظرها إلى الأمام دون النظر إلى الأسفل، مستمدة الراحة من النظر إلى السماء الا أنّ لون السماء الأزرق كان ينعكس على نظارتها، الأمر الذي جعلها تنظر إلى الأسفل، بين الحين والآخر.

آه، لقد أحست بالسعادة وهي تنظر إلى الأسفل.

بانت آيرز روك، المحطة الأخيرة، تدريجياً. وأحست بأنها لم تعد بمفردها بعد ما رأت باصاً يمر على الطريق.

«واو!» صرخت أدريانا بتعجب: «إن ما أراه حقيقياً!»

وما رأت كان حقيقة بالتأكيد، إنه أضخم عمود في العالم، آخر ما تبقىّ مما عُرِفَ منذ سحيق الأزمان بسلسلة جبال، فهو ينتصب في الصحراء بشموخ وصلابة، إنه شاهد ضد عوامل الزمن وقوى الطبيعة التي لا تُهزم.

لم تكن لدى أدريانا فكرة عن حجم هذا النصب، ولكن ضخامته أخافتها عندما اقتربت منه، كذلك لونه... البرونزي اللامع من الأعلى، ليتحول إلى أحمر قاتم عند الأطراف.

وأغرب شعور خالجها كان عندما اقتربت منه. إذ أنه كان بسيطاً وفي نفس الوقت شامخاً. لذلك فهي لم تستغرب قدوم الناس من جهات العالم الأربع لمشاهدة تلك الأعجوبة.

بعد ما انتهت من مشاهدة تلك الأعجوبة ارتفعت من جديد

وهي تلوّح بيدها للسياح الذين كانوا يتسابقون لتسلقّ تلك الأعجوبة. وعندما رأوا أدريانا توقفوا جميعاً، ابتسموا ولوّحوا لها بأيديهم، فشعرت برعشة فرح عارمة. لقد تفاجأت بذلك في بادىء الأمر، ليتغير ذلك الشعور بعد أن أدركت ما وراءه: مهما يشعر الانسان بسعادة بعد عمل يقوم به بنفسه، الا أن السعادة تكون أكبر إذا ما تشارك ذلك العمل مع شخص آخر.

وما أن لفظت كلمة «مشاركة» حتى تذكرت أنّ هذه المشاركة هي ما كانت تفتقده طوال حياتها، وأنّها الميزة التي أحبتها في الزواج. كم سيكون الأمر مريحاً أن يشاركها آلان حياتها، يشاركها نجاحها وفشلها. وبما أنهما يتشاركان جزءاً كبيراً من حياتهما، فلماذا لا يتشاركان في كل شيء؟

لا يحتاج الأمر إلى مزيد من النقاش، لقد حسمت أدريانا الموضوع. ستقبل عرض آلان للزواج منها. ستتزوجه!

شعرت أدريانا بالراحة بعد أن انزاح عنها ذلك الهم. فقط عندئذٍ أدركت ما كان يسبب كآبتها، وعدم قدرتها على تحديد وُجْهتها. لقد ارتاحت كونها استطاعت السيطرة على نفسها ثانية، ولأن تعرف إلى أين تتجه.

ارتسمت على مبسمها الجميل ضحكة صغيرة وقالت لها روحها السعيدة، سأقول لك إلى أين ستتوجهين، إلى الأعجوبة التالية في العالم!

وبعد ابتسامة رقيقة ومهارة طيّار له أكثر من خمسماية ساعة طيران، أدارت مقود الطائرة في اتجاه آخر يوصلها إلى الاولغاز، تلك المنطقة التي تشبه الآيرز روك.

بعد مرور وقت قصير، بدأت ترى الأولغاز، فهذه المنطقة تبدو من ارتفاع وكأنها كومة من الأحجار الأرجوانية، رغم أنّها قرأت في كتاب دليل السائح أن هذه الأحجار تبدو عن قرب أكبر ولونها ما بين الأصفر والبرتقالي حسب الوقت.

وصلت أدريانا فوق تلك الصخور المستديرة في غضون دقائق، وقد كانت تلك الصخور بجمال الآيرز روك ولكنها أقل تأثيراً في النفس.

حلّقت فوقها بضع مرات بحركة دائرية مترددة في العودة إلى أليس سبرينغز. لقد استأجرت الطائرة حتى بعد الظهر، وخزان الوقود يكفي لأكثر من ستماية ميل من الطيران. إذا عادت مباشرة إلى أليس سبرينغز، ستكون قد تخلّت عن ثلاثماية ميل مليئين بالفرح، فقط لأنها شعرت بقليل من الاضطراب بسبب المنقطة التي كانت تحلقّ فوقها. الأمر الذي يدعو للسخرية، انها لم تكن يوماً من الأشخاص الذين يستسلمون لمخاوفهم.

إذاً، توجّهت أدريانا إلى الشمال، مقررة أن تحلقّ لمسافة مئة وخمسين ميلاً قبل أن تعود أدراجها. وها هي الآن تستطيع رؤية سلسلة جبلية عن بعد، هي السلسلة الجبلية المسمّاة ماكدونيل التي من خلالها يمكن التوجّه مباشرة إلى أليس سبرينغز.

ولكن ما أن اقتربت من تلك السلسلة الجبلية حتى أدركت أنها لا يمكن أن تكون ماكدونيل، وذلك لظهور قمم أخرى في الأفق البعيد عنها. توجّهت نحو تلك القمم وهي تتمتّع بالنظر إلى تلك الهضاب والتلال، وإلى تلك الأشجار الخضراء التي تغطي السهول. لقد بدأت الشمس بالانحدار،

وبنظرة إلى ساعتها عرفت أن الساعة قد تجاوزت الثالثة. فما أن تصل إلى تلك السلسلة الجبلية، سوف تتجه شرقاً ومن ثم إلى أليس سبرينغز.

حلّقت أدريانا فوق تلك السلسلة الجبلية على ارتفاع منخفض، وكانت تراقب تلك المشاهد بالنظر إلى الخلف عندما وقعت الكارثة.

لم تكن لأدريانا أدنى فكرة عما جرى. فقد كانت تحلقّ بفرح وتستمتع بما تشاهده، وبعد ثانية واحدة سمع ذلك الصوت الفظيع. انشطرت مؤخرة الطائرة اولاً ثم انفجرت فهوت مقدمة الطائرة بحركة دائرية سريعة والمروحة الأمامية متوجهة نحو الأرض.

إعترى ادريانا رعب شديد وهي تحاول بشتى الوسائل ان تخلص نفسها من الموت المحتّم الذي تواجهه. غير أنها كانت غير قادرة على السيطرة على نفسها أو على الطائرة. ولكن في خضمّ هذا التوتر، عادت إلى ذاكرتها تلك التمارين الإلزامية التي تعلمتها، فحاولت السيطرة على الطائرة. الأمر الوحيد الإيجابي في هذا الموقف الخطر هو ان الجبال قد أصبحت خلفها، الأمر الذي سيمنحها فرصة لتفادي ما يبدو تفاديه مستحيلاً.

ودون أن تعرف كيف حصل ذلك، استطاعت أن تسيطر على الطائرة وترفع المقدمة إلى الأعلى ولكنها كانت لا تزال تهوي إلى الأسفل، وكانت على وشك الاصطدام بالأرض، ولكن كان لايزال لديها فرصة إذ أن الأرض كانت منبسطة أمامها.

واخيراً اصطدمت العجلتان الأماميتان بتلّة رملية بعد

www.elromancia.com

ثوانٍ قليلة من ملامستها الأرض ثم ارتفعت ثانية. حينذاك، ازداد خفقان قلبها من الخوف.

وبسبب فقدان المكابح في الطائرة، فإن حركتها كانت عشوائية متوجهة نحو الجبال التي كانت أدريانا قد عبرتها قبل وقوع الحادثة. غير أن سرعة الطائرة أخذت تخف تدريجياً ولكن ليس كما يجب.

وكان يمكن لأدريانا أن ترى من زجاج الطائرة الأمامي مرتفعاً جبلياً، وما يمكن توقعه هو اصطدام مريع نتيجته الموت. وسرعان ما تحوّل كل شيء إلى سواد.

لقد كان السواد شديداً في المكان... لدرجة أنها لم تستطع رؤية يديها، وحتى لو لم ترهما فإنها كانت تدرك بأنهما ترتجفان، كل جسدها كان كذلك. لقد تجسدت مخاوفها حقيقة... فما حدث لم يكن مجرد اصطدام وحسب، بل ما يزيد في سوء الموقف هو أنها سقطت في مكان لا أحد يعرفه.

أحسّت بمرارة في حلقها، لكنها ابتلعت تلك المرارة محاولة تشجيع نفسها في لحظات حرجة كما يفعل الشجعان. اعتراها رعب وهستيريا ولكنها حاربتهما قائلة لنفسها انه لم يحن الوقت بعد لتموت، لأنه لو كان قد حان أجلها، لكانت قد ماتت عندما حصل الإصطدام.

أخذت تتفحص جسمها لتحدد ما إذا كانت مصابة. كانت يداها لا تزالان ترتجفان لكنها مررّتهما على وجهها حيث لم يكن هناك دم، أو ورم، سوى كدمة صغيرة فوق حاجبها الأيسر. كذلك كانت تشعر بألم شديد في رأسها.

لكن، ألم الرأس لم يتسبب بموت أحد، هل حصل ذلك؟

بقيت في مكانها وأخذت تحرك جسدها تدريجياً، وقد أحسّت بألم في بعض أجزاء جسمها، ولكنها لم تشعر بأي عظام مكسورة. عندئذٍ تذكرت مقعد الطيار وجهاز اللاسلكي. فالصدمة افقدتها صوابها. وبينما كانت توبّخ نفسها لغبائها، أخذت تبحث عن مفتاح الضوء حتى وجدته.

لقد كان معطلاً.

حاولت بصعوبة أن تسيطر على خيبة الأمل التي اعترتها، وأخذت تبحث عن جهاز اللاسلكي، وبعد أن وجدته أخذت تحاول وتحاول ولكن دون جدوى، فلم تكن هناك اية اشارة تمنحها بعض الأمل. لقد كان معطلاً تماماً كما هو حال الطائرة.

وعندما سيطر عليها الخوف واليأس مرة أخرى، أخذت تلوم نفسها قائلة، انّ عليها أن تشكر حظها على أنها لا تزال على قيد الحياة. ثم بدأت تفكر في أن الإدارة في أليس سبرينغز ستعلم بعدم عودتها وسترسل الطائرات للبحث عنها عند بزوغ الفجر. ومن المؤكد أن حطام الطائرة سيكون دليلاً يمكن للجميع رؤيته.

لكن صوتاً في داخلها أخبرها أن الحطام سيكون دليلاً واضحاً إذا عرفت طائرات الانقاذ أين يجب تبحث ونعتها بالبلهاء!

تأوّهت أدريانا من شدة يأسها متسائلة لماذا لم تتصل ببرج المراقبة خلال تحليقها؟ وما يبدو غير قابل للنقاش هو إهمال الأشخاص الذين يستأجرون الطائرات للمتعة وعدم ازعاج أنفسهم بالاتصال بجهاز المراقبة، الأمر الذي يحفظ سلامتهم. والحقيقة هي أنها اقترفت غلطة فادحة قد تكلّفها حياتها.

www.elromancia.com

لكنها حاولت أن تؤكد لنفسها أنّهم سيعثرون عليها ولو بعد حين.

ورغم أنها حاولت تخفيف مخاوفها بالمنطق... آلان رجل غني، حتى إذا توقفت السلطات عن البحث، فإنه سيستأجر كل الطائرات، وكل الطائرات المروحية المتوفرة... تملكها إحساس غريب باليأس وامتلأت عيناها بالدموع مسحتها بسرعة، ثم أدركت أن نظارتها الشمسية ليست في مكانها. فهي تعتقد أنها وقعت في مكان ما على الأرض. لكنها لم تهتم للأمر، فلم يعد يهمّها أي شيء...

أجهشت أدريانا بالبكاء ثم ادركت ان عليها أن تكون شجاعة. وشعرت بتحسن بعدما بكت، لأنها استطاعت ان تخرج كل ما في داخلها من خوف ورعب. عليها ان تكون أقوى، وأقدر على التعاطي مع ما سيواجهها.

أحسّت أدريانا برعشة في داخلها ذكرّتها بأول وأهم مشكلة الا وهي البرد. فالوقت بداية فصل الربيع، النهار حار في الصحراء لكن الليل بارد جداً. أحست أدريانا مرة أخرى بتلك الرعشة بينما كانت تسحب سترتها عن مقعد مساعد الطيار الخالي، لتضعه على كتفيها المتجمدتين من البرد. لقد فكرت في الخروج من الطائرة... لكنها عادت وقرّرت الصمود حتى بزوغ الفجر. إذ من الحماقة أن تعرض نفسها للخطر بعد نجاتها من ذلك الاصطدام الفظيع.

لقد مرّ الوقت ببطءٍ شديد، ساورها خلاله قلقٌ شديد، مما جعل النوم والانتظار أمرين مستحيلين. عند قرابة الساعة الخامسة صباحاً، خرجت من الطائرة ولشدة ما دُهشت عندما رأت أين اصطدمت الطائرة، فلقد اكتشفت أن الطائرة

قد علقت في قلب منخفض تغطي مدخله شجرة ضخمة. الأمر الذي يمنع طائرات الانقاذ من رؤية طائرتها.

وبدأت تتأوّه من جديد لشدة يأسها ومفاجأتها حين أخذت تتأمل الطائرة، حتى وصلت إلى مؤخرة الطائرة. وقد تردّد صدى شهقتها لشدة دهشتها. يا إلهي، ماذا حصل لذيل الطائرة؟ لا يمكن أن يكون قد سقط بسبب الصدأ، والطائرة دونه تبدو جديدة.

لعلها اصطدمت بطائرة أخرى بينما كانت تحلق في الجو، رغم أنها لم تر أي طائرات. ربما لم تتحطم الطائرة الثانية وعادت أدراجها لتنبيء السلطات بالحادث ومكانه؟ إذا كان الأمر كذلك فإنهم سيعرفون أين يبحثون عنها رغم كل شيء.

رفعت هذه الأفكار من روحها المعنوية إلى أن تأملت ما حولها برويّة وللمرة الأولى. وصرخت: «آه، يا إلهي.»

لقد بزغ ضوء الفجر، والضباب يغطي السماء. لكن لم يكن هذا هو السبب الذي ملأ قلبها بالخوف، بل السبب كان الأراضي الرملية الممتدة على مدّ نظرها. ماذا لو كانت مخطئة؟ ماذا لو لم يكن هناك طائرة أخرى؟ ماذا لو لم يجدها أحد؟

فعادت أدراجها نحو الطائرة وعيناها مليئتان بالدموع، واتكأت عليها ووضعت رأسها بين يديها. ولكن بعد دقائق قليلة، رفعت رأسها وقررّت أن تبذل كل ما في وسعها ليس في البكاء والخوف، بل لايجاد وسيلة تساعدها على البقاء حيّة لحين وصول فرق الإنقاذ.

بعد ذلك بدأت بالبحث داخل الطائرة، وقد شعرت بسعادة

كبيرة عندما وجدت غالوناً من الماء، وتفاحتين، وبطانية، وعلبة من البسكويت بالكريم تحت مقعد المسافر، بالإضافة إلى عصير البرتقال، والموز، وعلبة من حبوب النعناع داخل حقيبتها. وبرأيها فإنّ هذه المؤونة ستجنبها الجوع والعطش حتى يتم إنقاذها.

لقد كانت سعيدة كذلك حين وجدت قبعتها الأنيقة المصنوعة من القش. وبعد أن تناولت قليلاً من عصير البرتقال والموز، ووضعت القبعة على رأسها، إنطلقت لتجميع الحصى لتكتب بها عبارة قرب مكان وقوع الطائرة لترشد فريق الانقاذ.

بعد أن أشرقت الشمس واشتدت الحرارة لم تخلع سترتها حتى لا يحترق جلد ذراعيها. تمنت لو أن نظارتها لم تتكسر عند الاصطدام، لأن أشعة الشمس كانت تزعج عينيها.

قالت في نفسها ليس مهماً أن ترتاح، لذلك فقد استمرت في تجميع الحصى. وكتبت العبارة، بأحرف كبيرة لتكون أكثر وضوحاً، إذ أنّها تظن أن القيام بأي عمل هو أفضل من لا شيء.

فهي كانت تخاف إذا ما جلست دون أن تعمل أي شيء، فإن الهستيريا التي تخفيها في داخلها ستسيطر عليها. لقد سمعت مرتين هدير صوت طائرات ولكن لم يقتربوا كفاية من مكان وجودها حتى يروا العبارة التي كتبتها أو التلويح المستمر بقبعتها.

أما المرة الثالثة التي سمعت خلالها أدريانا صوت هدير طائرة، فقد قفزت ووقفت فوق صخرة عالية. وأخذت تنظر إلى السماء ولكنها لم تستطع أن ترى أي شيء. تدريجياً،

كان الصوت الذي تسمعه يبدو أقرب وأوضح، لكنه لم يكن صوت محرك طائرة. لم يكن هذا الصوت يأتي من السماء، بل من الصحراء الواسعة.

وضعت ادريانا يديها على جبهتها كي تحجب أشعة الشمس الشديدة عن عينيها لتستطيع الرؤية بوضوح اكثر. ومن شدة حرارة الشمس، فإن اشعتها حولت رمال الصحراء إلى بحيرة ماء، وهذا أول سراب تراه، وقد بدأت تتخيل كيف يمكن لهذا السراب ان يخدع رجلاً يموت من شدة العطش.

بدا الصوت أقرب وأقرب وهو أشبه بصوت النبض ولكنها لم تتمكن من رؤية أي شيء.

بعد وقت قليل، استطاعت رؤية مصدر الصوت، فسقطت يداها عن عينيها وشهقت شهقة قوية لدى رؤيتها رجلاً يمتطي جملاً يتحرك بسرعة، علق جرس حول عنق الجمل، هذا الجرس الذي كان مصدر الصوت الذي تسمعه ادريانا. وخلف هذا الجمل جملٌ ثانٍ محمّل بالأمتعة.

ولكن سرعان ما تحولت الدهشة التي سيطرت على أدريانا إلى سعادة جعلتها تقفز عن الصخرة وتركض في اتجاه القادم وهي تصرخ: «هنا، هنا، أنا هنا.»

أخذ قلبها يخفق بسرعة كبيرة بينما كانت تركض وتتعثر دون أن تأبه بالخدوش التي اصابتها. لقد كانت متأكدة من أن الرجل قد رآها. انها في مأمن الآن. نعم هي في مأمن. فهي لن تموت رغم كل شيء!

الفصل الثاني

نظر الجمّال إلى أدريانا بدهشة بسبب اقترابها منه بتلك الطريقة الهستيرية، ثم أمر الجمل بالتوقف بكلمة «هوو!» فاستجاب الجمل فوراً وتوقف على بعد متر من ادريانا، ثم وقف الجمل الثاني وراءه.

نظرت ادريانا إلى الرجل نظرة خائبة، لكن رغم ذلك انهمرت دموع الفرح من عينيها. غير ان الرجل لم يكن ينظر إليها، ولكن إلى الخلف ويهز رأسه ببطء. ثم قال موبخاً الجمل: «تباً يا دامبو، هل أنت اطرش أم أبله؟ لقد قلت لك هوو، وليس هيا!»

رفع الجمل رأسه محدقاً بسيده بطريقة خجولة لم تستطع ادريانا بعدها سوى ان تضحك.

أدار الرجل عينيه عن الجمل وحدق بأدريانا، ثم رفع رجلاً واحدة عن السرج وقفز عنه إلى الأرض برشاقة.

تأملها وقال: «أنت تتمتعين بروح مرحة، يا سيدتي الصغيرة.»

لم ينعت أشخاص كثيرون أدريانا بالصغيرة، إذ ان طولها معتدل، وهذا الطول قياساً بغيرها يعد طولاً لا بأس به. لكنها كانت صغيرة الكتفين، وتبدو صغيرة في البنطال الذي ترتديه وتلك البلوزة الحريرية الصفراء. ولكن مهما تكن فلا يمكن نعتها بصغيرة، لكنها ليست بحجم هذا الرجل، فهو عريض المنكبين، قوي البنية بغض النظر عن ثيابه

الرثة، القميص الكاكي والجينز الأزرق الفاتح. ثم أخذت تحدق بجسمه ابتداءً من رجليه الطويلتين صعوداً إلى ذلك الوجه الذي يمتاز بجمال وحشي ثم إلى زرقة تلك العينين اللتين لم تر بجمال لونهما، تحدقان بها ابتداء من قبعتها البنية بنفس الطريقة التي كانت تنظر بها إليه.

أخيراً سألها: «اعتقد انك الوحيدة الباقية على قيد الحياة؟»

فأجابت بنبرة غريبة: «نعم.»

تابع قائلاً: «إذاً، لقد توفي الطيار. يا للمسكين!»

اوضحت له بسرعة: «لا، لا، لقد فهمت الأمر بطريقة خاطئة.»

فعبس بطريقة اظهرت استغرابه وسألها: «لم يقتل الطيار؟»

فأجابت أدريانا بكل ثقة: «لا... لم يقتل... أعني... أنا هو قائد الطائرة.» ثم انتظرت ردة الفعل المتوقعة.

لكن ردة الفعل تلك لم تظهر، اكتفى برفع حاجبه الأيسر متمتماً: «حسناً، حسناً.» بينما كان يتأملها ثانية ولكن هذه المرة بسرعة أكبر. وعلى كل حال فان ردة فعله كانت غير متوقعة بالنسبة إلى رجل بدوي مثله.

وبعد ذلك التأمل السريع سأل باختصار: «هل من مسافرين غيرك؟»

أجابته بالطريقة نفسها: «لا.»

ظهر ارتياح في عينيه بعد اجابتها ولم تستطع أدريانا أن تفهم سببه.

ثم تابع سائلاً بذلك الصوت الجذاب: «وأنت؟ ألم تتأذي؟»

«بعض الرضوض والخدوش... بالاضافة إلى تشنج في كتفي.»

فقال بعد ان تنفس عميقاً ومد يديه: «وكتفي ايضاً.»

قالت أدريانا في نفسها، يا الهي كم هو عريض صدره، ان قميصه كادت تتمزق عندما تنفس ذلك النفس العميق. كذلك فانه عريض الكتفين، كبير اليدين، ككل جسمه.

ولشدة خجلها وصل الاحمرار إلى عنقها عندما احست بما كانت محدقة به. ثم رفعت نظرها إلى وجه الرجل، وكم كانت سعيدة عندما وجدته يتأمل حطام الطائرة غير منتبه إلى ما كانت تنظر إليه.

شعرت أدريانا بانزعاج من نفسها إذ انها لم تكن كذلك النوع من النساء اللواتي يبحثن عما يثير هن في الرجال. غير ان آلان رجل وسيم جداً، طويل، متناسق القامة ولكن لم يكن تأثير جاذبية آلان الجسدية ظاهراً جداً خلال علاقتها به. وذلك لأن أكثر ما جذبها إليه هو انه رجل المواقف والقرارات.

وها هي الآن أمام رجل قوي البنية، مفتول العضلات، أمام رجل لم تتوقع ان تعجب به، رجل له قدرة عقلية أكثر بقليل من الجمل الذي كان يمتطيه. أما بالنسبة إلى عقله وطموحه... فانه من الصعب ان يكون في هذا الرجل الشديد الفخر برجولته نسبة تذكر من أي منهما. فانه يتكلم، ويتحرك، وحتى يفكر ببطء.

وبينما هي تفكر، التقت عيناهما. انها لم تفكر على هذا النحو قبل الآن، قبل ان تلتقي بهذا البدوي، حتى انها اصبحت غير قادرة على كبح عقلها عن التفكير بهذا الأمر. فهي تقول انه رجل جذاب، وماذا بعد؟ حاولت طرد هذه

الفكرة من رأسها لأنه كان عليها فقط ان تفكر فيما إذا كان يستطيع ان يعيدها بخير إلى حيث تنتمي، إلى الحضارة، أو أن يبقى برفقتها حتى يأتي من ينقلها إلى هناك.

وبعد فترة من الصمت قال وهو يهز رأسه: «لا بد وأنك سيدة محظوظة. فأنا عندما رأيت طائرتك تسقط امس، ظننت انك قتلت. ولكن عندما لم أر أي أثر للنار بدأت اتساءل عما جرى. وبما انني كنت اعلم اني لن استطيع الوصول إلى هنا إلا بعد حلول الظلام، فقد قررت ان أقوم بذلك اليوم عند شروق الشمس وها أنا ذا.»

فسألته آملة ان يجيبها بأنه حضر من محطة قريبة:

«من أين جئت؟» رغم انها تستطيع معرفة الجواب من مجرد النظر إلى البلدة الشبيهة بالصحراء، حتى انه لم يكن هناك ماشية ترعى في المحيط. لكنها قرأت في كتاب دليل السائح ان هناك مراع في مناطق اصبحت بعيدة الآن بعد وصول ذلك الكائن.

فأجابها وهو يشير إلى نقطة بعيدة عن مكان وجودهما: «أنا أقيم في مكان يبعد عشرين ميلاً. في ذلك الاتجاه... ولقد تركت معظم امتعتي هناك وأتيت بالجمل دامبو غير محمول لأنقل من هو بحاجة لذلك. وكما جئت أنا على ظهر الجمل، ستفعلين أنت.»

«أنا، امتطي دامبو؟» ولدى سماع الجمل اسمه يلفظ بتلك النبرة العالية، كاد ينخ أرضاً.

اكفهر وجه ادريانا من شدة الخوف ثم صرخت قائلة: «لمسافة عشرين ميلاً؟» كيف لها ان تمتطي جملاً وهي لم تمتطي حصاناً يوماً!

بدا الاستهجان جلياً على وجه الرجل الذي قال:

«ان مسافة العشرين ميلاً لا تساوي شيئاً قياسياً بالمسافة التي سنقطعها في طريق العودة إلى بلدتك. لكن لا تقلقي، دامبو أليف وأنا أعرف كيف اسيره. إذاً، سأربط الجملين عند جذع الشجرة فترة نتناول خلالها طعام الغداء ومن ثم نأخذ قيلولة، بعدها أعطيك بعض التعليمات عن كيفية امتطاء الجمل والتحكم به لنباشر مشوار العودة إلى بلدتك.»

توجه نحو التلة حيث حطام الطائرة وهو يجر الجملين خلفه. أما ادريانا فقد تسمرت في مكانها لبضع ثوان مذهولة ثم لحقت به وقالت: «أليس من الأفضل ان ابقى هنا حيث الطائرة؟ فانقاذي هو رهن بالوقت ليس أكثر، وأنا أعرف ان الطائرة مغطاة تماماً بالشجرة، لكنني كتبت عبارة نجدة بالحصى في فسحة قرب المكان.»

فأجابها: «لن يرى ذلك أحد.»

«لماذا تقول هذا؟»

«أولاً، مكان حطام الطائرة ليس مكاناً ضمن خط سير الطيران. ثانياً، يبدو انك لم ترسلي عبر جهاز اللاسلكي خبراً عن مكانك. فلو كانوا يبحثون عنك لوجدوك، اذ كان لديهم الصباح باكمله. وبالنظر إلى الحطام يمكنني ان ارى ان الجهاز اللاسلكي قد تحطم ايضاً.»

فأكدت كلامه مندهشة من طريقة تحليله واستنتاجه:

«أجل... أجل، انه كذلك.»

فقال لها: «أتريدين أن أخبرك أمراً آخر؟ أنت قمت برحلة استطلاع ولم تخبري عن تغيير وجهة سيرك، صح؟»

«صح.»

فتنهد تنهيدة غاضبة ثم قال: «اتعلمين ان ما فعلته يعتبر في منطقتنا خطيئة كبرى؟ فالناس يموتون عندما يرتكبون اخطاءاً كهذه.»

اضطربت ادريانا.

تابع كلامه قبل ان ترد: «لكن كلنا نرتكب مثل هذه الخطيئة عندما لا نفكر باتخاذ الاحتياطات اللازمة بين الحين والآخر عند الطيران، حتى أنا.»

فاستهجنت قائلة: «يمكنك التحليق؟» ثم استدركت بارتباك وحاولت المتابعة «أعني...»

فأجاب محاولاً اخفاء انزعاجه: «الطيران هنا شائع كما هي قيادة السيارات في المدينة.» ثم اضاف بحذق: «أعتقد انك من اهل المدينة؟»

«نعم، لكن... آه، لا بد انك عالم نفسي! كيف استطعت ان تعرف أني من المدينة.»

وأخذت تلك العينان الزرقاوان تحدقان بها من رأسها حتى اخمص قدميها.

ثم علق باقتضاب: «لم يقم يوماً أحد من بلدتي هنا بارتكاب خطأ مثلك، هذا بالاضافة إلى ان ليس كل فتيات المدينة يرتدين ثياباً من الحرير والكتان الطبيعي عند الطيران.»

حدقت ادريانا به، ثم قالت في نفسها انه استطاع من نظرة واحدة ان يميز الحرير والكتان. من يكون هذا الرجل؟ أهو راعي ماشية، تاجر ماشية، مروض جمال، من يمكن ان يكون لتكون لديه تلك المعرفة بانواع القماش، انه يفاجئها باستمرار، اليس كذلك؟

www.elromancia.com

وصلت ادريانا وذاك الرجل إلى حيث حطام الطائرة ثم توقف الرجل، رفع قبعته وحك رأسه بينما كان ينظر إلى مؤخرة الطائرة. نظرت أدريانا كذلك، ولكن ليس إلى الطائرة بل إلى رأسه الذي كان يغطيه شعر بني كثيف قصير جداً، تلك التسريحة التي لم تكن تحبها ادريانا، ولكنها بدت جميلة جداً لهذا الرجل.

انه نوع من الرجال تصادفه ادريانا للمرة الأولى، ولكنها أدركت ان البطء الذي يتصرف به يخفي وراءه ردات فعل سريعة بالسرعة التي يفكر بها.

وبعد ان حدق طويلاً في هيكل الطائرة، قال بدهشة كبيرة: «ألديك فكرة عما قد يكون سبب ذلك؟»

فهزت رأسها ثم قالت: «لا، أعتقد انني اصطدمت بطائرة أخرى، لكن...»

فقال مقاطعاً: «لم تكن هناك طائرة أخرى. فقد كنت اراقب تحطم الطائرة بواسطة منظاري.»

فاستهجنت قائلة وهي تفكر في ما يمكن ان يكون سبب هذا الحادث: «لم تكن هناك طائرة أخرى؟» ثم عادت تفكر في ما قاله عن المنظار.

وقالت بنبرة تؤكد أنها لا تظن انه مجرد بدوي: «آه، الآن عرفت. أنت عالم فلكي!»

فضحك وقال: «آسف لأني خيبت ظنك. ولكنني استخدم المنظار فقط لأني أحب ان اعرف إلى أين اتجه عندما اكون في جولة في الصحراء. ولكنني اعترف انني اراقب النجوم ليلاً ولكنني لا أستطيع أن اميز بين واحدة وأخرى. على الأقل...» وبعد ابتسامة عريضة ماكرة اضاف قائلاً: «ليست بعيدة المنال.»

جفلت ادريانا لدى سماعها تلك الكلمات من ذلك الرجل الذي اتبع كلماته بنظرة اعجاب، سببت لأدريانا رعشة في داخلها، لتقول له بعدها بصوت خافت تحاول من خلاله ان تتأكد انه لن يسيء فهمها: «لقد اعتقدت ان القدامى فقط كانوا يقومون بجولات في الصحراء.» لقد كان عليها ان تدرك ان رجلاً بوسامته قد يظن نفسه فاتن النساء.

نظر إليها بامعان ثم قال: «أنا أيضاً اعتقد ذلك، لكن لا يمكنك ان تعيشي هنا كل هذه الفترة دون ان تتعلمي بعض خصالهم. اسمعي، أظن انه علينا قطع هذا الحديث لأنك لا تعرفين مدى سرعة اصابة الانسان في مثل هذا المكان بضربة شمس.»

وما ان انهى كلامه حتى شدها من يدها وطلب منها الجلوس في ظل الطائرة. وما أن جلست حتى هجم البعوض عليها من الشجرة، الأمر الذي جعل أدريانا تلوح بيدها شمالاً ويميناً.

«أوغاد، اليس كذلك؟ ربما سيسعدك ان تعرفي انه لدي قاتل بعوض حيث اقيم بالاضافة إلى بعض الكماليات الأخرى.»

فسألته وهي تحاول اللحاق به وهو يسير ويجر الجملين وراءه: «مثل ماذا؟»

فاستدار وقال مبتسماً: «مثل محارم الورق.»

أحست أدريانا وكأنها في كابوس! ثم أخذت تراقب ذلك البدوي الشجاع وهو ينقل امتعته ليضعها تحت الشجرة قبل ان يعود ويجلس بقربها.

استأنف الرجل الحديث بعد ان وصل إلى حيث كان يتوجه

www.elromancia.com

وسألها: «الديك الكثير من الماء؟» ثم رفع قبعته التي كانت تغطي جبهته إلى الخلف، لتصبح بعد ذلك ملامح وجهه شديدة الوضوح بكل تفاصيلها، تلك الملامح التي عكست جاذبيته. أما بالنسبة للتجاعيد الظاهرة تحت عينيه وحول فمه، فسببها كما اعتقدت ادريانا التعرض المستمر لأشعة الشمس، أو كون عمره قد تجاوز الثلاثين.

توجهت أدريانا نحوه لتسأله كيف عرف بوجود الماء لديها، لكنها اوقفت نفسها في الوقت المناسب. فهي لم تكن أكيدة بعد ما إذا كان ذكاؤه فطرياً، أو انه يتمتع بغزيرة البقاء. لكن في أي من الحالين، لقد كانت متأكدة من ان لديه سبباً مقنعاً لكل خلاصة يستخلصها. لذلك قررت عدم سؤاله أي أسئلة أخرى تتسبب في احراجها.

فأجابته قائلة: «هناك غالون من الماء في الطائرة.»

«ماذا عن الطعام؟»

«لدي تفاحتان، وعلبة من البسكويت وأخرى من حبوب النعناع، هذا بالاضافة إلى القليل من عصير البرتقال و موزة واحدة للفطور.»

نظر إلى ساعته وقال: «انها الحادية عشرة والنصف... إذا تحركنا من هنا حوالي الساعة الواحدة، فاننا سنصل إلى مخيمي قبل مغيب الشمس... لكننا لا نستطيع ان نتأخر في عبور تلك المنطقة، فهي منطقة قاحلة ليس فيها قطرة ماء.»

كانت أدريانا تستمع فقط دون ان تقول شيئاً. لكنها بعد بضع ثوان أحست بانزعاج لأنها شعرت بأنها غير قادرة على فعل أي شيء، ذلك بالاضافة إلى انها مضطرة لتنفيذ

ما يقوله شخص آخر، الأمر الذي لم تفعله قط خلال حياتها وقد اقلقها فعل ذلك الآن. لذلك سألته: «لكن اليس مكان اقامتك في الجهة الغربية؟ الن نصل في وقت اسرع إذا ما تحركنا من الجهة الشرقية؟»

«بلى.»

«إذاً، لماذا لا نفعل ذلك؟»

«لأنني لست متأكداً من كيفية سلوك ذلك الطريق. هذا بالاضافة إلى انني احضرت مؤونة قليلة معي، وكذلك لأن كلبي ينتظرني.»

لم تستطعْ ادريانا ان تستوعب فكرة ان يترك كلبه أو ان يعبر طريقاً يجهلها.

وأضاف الرجل قائلاً: «سنترك ورقة صغيرة في حال وجد فريق الانقاذ عبارة النجدة التي كتبتها. ذلك فانهم إذا لم يروها قريباً، فان الحصى ستغطيه الرمال. لكن لا تقلقي، فانا لدي الكثير من المؤن اذ اني كنت اتوقع ان ابقى هنا لمدة اسبوعين، لكني سأوصلك إلى ديارك في أقل من أسبوع.»

فقالت بصوت اجش: «أسبوع.»

ذهل الرجل لاندهاشها ثم قال: «سنصل إلى دوفر داونز بعد ستة ايام، وهناك يمكنك ان تذهبي إلى حيث تقيمين بالطائرة.»

فقالت بنبرة عصبية: «أعيش في سيدني. لم اسمع من قبل بمنطقة تدعى دوفر داونز. هل هي مدينة؟»

«لا، انها مزرعة ماشية، جنوبي شرق كيمبرليز، ليس بعيداً عن الحدود التي تربط بين استراليا الغربية والمقاطعة الشمالية.»

www.elromancia.com

«أتعمل هناك؟» وعندما تردد في الاجابة، استدركت قائلة: «اعني عندما لا تكون في جولة.»

ارتفع حاجبه الأيسر مرة ثانية. وتمنت لو أنها لم تستخدم تلك النبرة في صوتها عندما تكلمت. وهي في الحقيقة غير متأكدة تماماً ما الذي دفعها لفعل ذلك، سوى ان هذا الرجل كان يتحكم بها بطريقة لم يتصرف بها معها أحد.

ولطالما كانت السخرية سلاحاً فعالاً كانت تستخدمه في الماضي مع صديقها عندما شعرت بالخوف من علاقتها معه. اما الذي كان يقلقها في موقفها من هذا الرجل، هو ضعفها حيال قوة شخصيته وليس ضعفه هو! انه حقاً كذلك، فباستثناء ذلك التلميح عن النجوم، لم يظهر منقذها أي اهتمام بها على الاطلاق.

بعد ما انتهى من عمله توجه إلى حيث كانت تجلس وجلس بقربها وعدم الاكتراث واضح تمام الوضوح على وجهه، ثم قال: «يمكنك ان تبقي هنا وحدك وتزيلين الرمل عن عبارة النجدة التي كتبتها بالحصى. فلربما استمروا بالبحث عنك لمدة يومين. هل أنت بهذه الأهمية كي يفعلوا ذلك؟»

أجابت بعصبية لسخريته: «يعتقد خطيبي ذلك.»

فتوجه بنظرة إلى يدها اليسرى التي لا أثر لخاتم خطبة فيها.

فأجابت بسرعة والاحمرار ظاهر على وجنتيها في تلك اللحظة الحرجة: «أنا... لقد قررنا الزواج منذ يومين فقط.» ثم قالت في نفسها وهي تحاول ان تبرر ما تفوهت به لتقول ان تلك الجملة لم تكن كذباً اذ انها ستبلغه موافقتها حالما تعود إلى سيدني.

ولم يعط رفيقها الحالي أي تعليق على الموضوع، وقد كان لدى ادريانا الانطباع انه لم يكترث إذا ما كانت حقاً مخطوبة اما لا. حول الرجل نظره بعد ما انهت ادريانا كلامها إلى ذيل الطائرة المحطم وأخذ يحدق به عاقد الحاجبين.

حاولت ادريانا ان تداري استياءها بسبب تجاهله لها، لكن يبدو ان ذلك كان مستحيلاً. ثم بدأت تفكر كيف يمكن ان يبدو وجهها الآن، اذ لا بد وان يكون الماكياج قد ازيل عن وجهها بعد حادث ليلة امس. ولم تكن تحمل مرآة أو ادوات الماكياج في حقيبتها، فلطالما كرهت تلك العادة في النساء.

لكنها انتفضت فجأة وسألت نفسها: ما أنا بفاعلة؟ أأحاول ان أبدو جذابة لألفت نظر هذا الرجل؟ أنا امرأة مخطوبة آه... تقريباً!

وضعت أدريانا يديها على قدميها ثم أخذت تنظر إلى الصحراء وقالت بعد ذلك: «لن يتوقف آلان عن البحث حتى يجدني.»

انتصب الرجل الذي كان يجلس إلى جانبها وقال: «حسناً، في هذه الحالة دعيني اعطيك ما يلزمك من مؤونة حتى تأتيك النجدة.»

فقالت معترضة: «لكن... لكنني سأموت إذا بقيت هنا ولم يجدني احد!»

فقال مؤكداً كلامها: «هذا صحيح.»

استفزت ثانية من عدم اكتراثه ثم قالت بنبرة اتهام: «ألا تهتم بي؟»

www.elromancia.com

فأجاب مؤكداً: «بالطبع اهتم، لكنني لم اعتد على دفع الناس إلى فعل ما لا يحبون فعله. لكنني أحسست من طريقة كلامك معي انك تظنين اني مهووس قد اعتدي عليك على رمال الصحراء.»

حاولت ان تبدو طبيعية، دون ان تظهر أي اضطراب أو احساس بالذنب، اذ انه لم يعلم ان أكثر ما كان يخيفها هو انها كانت تريده ان يعتدي عليها!

وتابع قائلاً: «دعيني اؤكد لك يا سيدتي ان ما يجول في فكرك هو ليس من الأمور التي اقوم بها خلال جولتي في الصحراء، وذلك لأسباب عدة اولها ان الرمال ساخنة جداً، هذا بالاضافة إلى البعوض، والنحل، والعقارب، والسحالي والأفاعي. وبالطبع فان هذا يؤثر حتى على كازانوفا، صدقيني. غير انني لا أعرف كيف هو الأمر بالنسبة إليك، اما أنا فافضل ذلك في مكان بارد وعلى فراش نظيفة وشريكتي كذلك. وأفضل أيضاً أن تكون شريكتي عزباء كما أنا. لذلك أرى انك لا تصلحين لأن تكوني شريكتي رغم جاذبيتك وعطرك الفرنسي الساحر.»

افتر ثغر ادريانا ليس بسبب ما قاله، فهي امرأة متمدنة رغم كل شيء، لكنها كرهت ذلك الاحساس الذي أخذ يزرعه فيها. فهي اعتادت ان تكون سيدة الموقف خاصة في الأمور التي تتعلق بعلاقاتها مع الجنس الآخر. أما الآن فها هي تُرفض من هذا... البدوي!

تمنت أدريانا لو انها تستطيع ان تتجاوز التقاليد وتقول له انها لا تلتزم بها، ان حياتها هي أمر يخصها وحدها، وانه بفظاظته يكون الرجل الأخير في العالم الذي قد تفكر في

اقامة علاقة معه حتى على تلك الفراش النظيفة الباردة التي ذكرها.

استأنف الحديث سائلاً: «إذاً، ماذا قلت؟ هل ستأتين معي ام لا؟»

أغلقت ادريانا فمها وهي تحاول ان تسيطر على ما ساورها من احساس في هذه اللحظة. بعد ذلك حولت نظرها إليه ورمقته بنظرة ذكية وقالت: «اعتقد انه ليس امامي خيار آخر.»

فقال موافقاً: «يبدو لي كذلك ايضاً.»

بعد ثلاث ساعات، بدأت أدريانا تشعر بالندم لأنها وافقت على الرحيل معه، ظناً منها ان المجازفة بحياتها كانت اسهل مما تمر به الآن.

فهي تشعر بألم في رأسها، ورجليها كذلك. وكان العرق يتصبب من وجهها، ورقبتها وظهرها، لدرجة بلل ثيابها فالتصقت بها. أخذ البعوض يحوم حولها، حول عينيها، وانفها، وفمها. فقالت انها تكره الجمال، والصحراء، والحرارة وفوق كل شيء تكره هذا الرجل الذي يمتطي الجمل امامها.

وتابعت الكلام في نفسها قائلة انه سيعلمها امتطاء الجمل. لكن كل ما فعله هو انه وضعها على ذلك السرج وأراها كيف تمسك اللجام، ثم صرخ بالجمل قائلاً: «قم، قم!» لتبدأ بعد ذلك مسيرتهما. فحسبما تعتقد، ان عزاء ادريانا الوحيد هو انه عند انتهاء مشوار العشرين ميلاً هذا، لن يكون هناك أي اشكال إذا ما عرف دامبو الغبي الفرق بين «هوو» و«هيا» لأنهما سينخان على الارض منهكين.

أخذت تنظر ادريانا إلى الرجل متعجبة من نفسها التي وجدته جذاباً ولو حتى للحظة واحدة. فهو لم يكن سوى مغرور غير مبال بالآخرين، مستبد انانى يظن انه ليس عليه ان يوضح أي أمر لامرأة. فبعد دقائق قليلة من موافقتها الذهاب معه، حولها إلى انثى لا حول لها ولا قوة، وأخذ يخبرها ما الذي تستطيع اكله، وشربه، والوقت الذي يمكنها الاستراحة فيه، ماذا عليها ان ترتدي الخ، الخ، دون ان يعطيها أية فرصة لتبدي رأيها.

والمشكلة كانت انها في مثل هذه الظروف لا تستطيع القيام سوى بأمور بسيطة حتى لا تبدو بلهاء. لذلك فانها كانت تحاول ان تحافظ على ابتسامتها ظاهرة، تلك الابتسامة التي تخفي انزعاجها وعدم رضاها. وإذا ما ظهر ذلك على وجهها، فانه يحاول ان يتظاهر بأنه لم يلحظ ذلك، الا في ما يتعلق بقبعتها، الأمر الذي اقسمت أنها لن تغفره له ابداً!

لم يكن ضرورياً ان يثقب الجزء الأمامي من القبعة ثقبين حتى يدخل منهما الوشاح وذلك لتثبيت القبعة على رأسها. فقد كان يمكنها وضع القبعة ثم الوشاح فوق القبعة وتربطه فتحصل على النتيجة ذاتها، لكنه قال بفظاظة: «لن تثبت بقدر الطريقة التي اقترحها، بالاضافة إلى انها لن تحصل على القدر ذاته من الفيء.»

ثم بدأ بتنفيذ ما اقترح وذلك بوضع القبعة على رأسها وربط الوشاح باحكام مما جعل شكلها يبدو مضحكاً، الأمر الذي أثار حنقها الذي لم تستطع اخفاءه من خلال نظرتها إليه، وبعد ان بادلها تلك النظرة، اقسمت انها كانت على

وشك ان تقول شيئاً لو لم تتمالك نفسها في اللحظة الأخيرة عندما ابتعد عنها لدى اكتشافه صواب رأيها، مما تسبب بهز غروره، الأمر الذي منحها شيئاً من السعادة.

لكنه سرعان ما استعاد تماسكه ورباطة جأشه مما سبب رجوع ذلك الاحساس إلى داخل ادريانا.

لقد كان على ثقة انه سيد الموقف وهي تعلم ذلك، لكن علمها بذلك لم يساعدها على الاحتمال، اذ ان الغيظ كان يملأها ولا بد انه شعر بذلك من نظراتها إليه بينما كانا يتابعان مشوارهما، إذ استدار فجأة نحوها وسألها: «هل أنت بخير، يا ادريانا؟»

فأجابته بابتسامة باردة: «بخير.» ورفضت ان تدعوه باسمه بريس، رغم انهما تعارفا بالاسماء عندما كانا قرب حطام الطائرة، رفضت ان تعترف بأن يكون أكثر من جوال بلا اسم اجبرها القدر على قضاء بعض الوقت برفقته.

«تمسكي جيداً بالسرج فانا سأطلب من جامبو ان ينخ ودامبو سيقوم بالحركة ذاتها. حسناً؟»

«حسناً.»

وبعد ان اجابته، فعلت كما قال لها وهيأت نفسها لمزيد من المصاعب. فالسير على الطرقات الوعرة كان يذكرها بكل كدمة في جسمها الرقيق. لكن عندما استعد الجمل لكي ينخ، شعرت أدريانا بخوف شديد حتى انها سدت فمها بيديها حتى تتأكد من انها لن تتذمر أو تتلفظ ولو حتى بكلمة واحدة! ثم نظرت إلى معذبها مقسمة على الا تمنحه فرصة أخرى تجعله يشعرها بقلة حيلتها.

مضى على سيرهما أكثر من ساعة ولكن بالنسبة لأدريانا

فان هذه الساعة قد بدت وكأنها سنة. فهي لم تتوقع انها تستطيع تحمل ذلك العذاب.

وبينما كانت تتأمل تلك المساحات الشاسعة من الأراضي المرتسمة حتى حدود الأفق، بدأ عقلها يتخيل انها في بيتها الجميل في سيدني، جالسة بهدوء على شرفته الواسعة المطلة على ميناء سيدني بمياهها الزرقاء البلورية.

آه، ليتها هناك الآن، ممددة على اريكتها المفضلة، تحتسي كأساً من الشراب المنعش، لا ترتدي شيئاً سوى عباءتها الحريرية بعد حمام منعش.

تعثر دامبو وإذا بتلك العثرة تعيدها إلى الواقع، وأخذت بعد ذلك تصرخ اذ انها فقدت توازنها وبدأت تنزلق من جهة إلى أخرى. لكن سرعان ما كان الرجل خلفها ليعيدها إلى مكانها ثم سأل بفظاظة:

«هل أنت بخير؟»

فأجابته بنبرة أظهرت كل حنقها: «بالطبع لست بخير ابداً. فليس هناك أي جزء من جسمي غير متشنج أو لا يؤلمني، وسأموت من الحر، بالاضافة إلى الم مميت في رأسي. كذلك انا متعبة وعطشى.» ثم وضعت يديها على خاصرتها وتابعت قائلة: «أنا لا أحتاج سوى للاسترخاء في مغطس ماء وشخص يحضر لي شراباً منعشاً.»

فرد بابتسامة مستاءة: «عذراً، لا أستطيع فعل ذلك لك الآن.»

غضبت أدريانا غضباً شديداً لبرودة اعصابه، وتساءلت لماذا، لماذا لا يسدي لها خدمة على الأقل ويفقد اعصابه، نعم يفقد اعصابه! فهي تريد ان تراه يتصرف ولو لمرة واحدة كما تتصرف هي.

ثم راحت تنظر إليه بعينيها المتعبتين وتقول في نفسها انه يلائمه العيش في مثل هذا المكان حتى ان الحشرات لا تقترب منه، إذا لا بد وانه قد رش نفسه بذلك المبيد المضاد هذا الصباح.

نظر الرجل إليها وهو يهز رأسه وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه.

فسألت: «ماذا هناك؟»

«لن يسعدك ما ستسمعين.»

لفت ادريانا يديها حول جسمها وسألته: «هل هناك ما هو اسوأ مما نحن فيه؟ ارجوك، إرضِ فضولي، إذا لم يكن شيء آخر.»

ظهرت في عينيه دهشة حاول اخفاءها، فأدركت ادريانا ان هناك سوء فهم، فقالت: «لم اقصد ذلك.»

فضحك ضحكة جافة وقال: «لا، لا أعتقد انك قصدت ذلك. لكنه سيجعل اعترافي أكثر فظاظة، لا أريدك ان تسيئي فهمي.» ثم تقدم بجمله إلى المقدمة وتوقف. نظر إلى وجهها وتابع قائلاً: «اعتقد الآن اني استطيع ان اخبرك ما اريده.»

فسألت بالحاح: «آه، بالمختصر المفيد، ماذا هناك؟»

وبعد ان رسم تلك الابتسامة الباردة على وجهه قال: «قد يبدو ما سأقوله تافهاً، ولكنني كنت اود اخبارك بانك تبدين جميلة جداً عندما تغضبين.»

حدقت أدريانا به وموجة عارمة من السعادة تخالجها، لكن إلى جانب تلك السعادة كان هناك انزعاجها من سرعة استسلامها لجاذبية هذا الرجل. فهي بعد ابتسامة واطراء عابر استسلمت له كلياً.

لكن شعورها هذا كان في داخلها فقط.

فسألت وابتسامة باردة ارتسمت على وجهها: «حقاً؟»

فعبس قائلاً: «يا إلهي. أنت لا تعرفين كيف تردين الاطراء!»

«اعذرني، اذ انه يصعب عليّ ان اصدق اني ابدو جميلة وانا اموت.»

فرد باستهزاء: «لم تبدئي بالموت بعد.» وكان على وشك ان يقول شيئاً آخر عندما تجهم وجهه بينما كان ينظر إلى ما وراء ادريانا.

وقال: «تباً، تمسكي جيداً يا ادريانا، فنحن نواجه مشكلة بسيطة.»

وما ان ركل الرجل جامبو كي يتحرك، حتى قام دامبو بنفس الحركة، الأمر الذي جعلها لا تفكر سوى كيف تساعد نفسها على عدم الوقوع عن السرج.

الفصل الثالث

أحسّت أدريانا وكأنها تواجه موتاً محتماً، فاعترى الخوف كل جزء من جسمها وأخذت تفكر ما الذي يمكن ان يكون قد رآه ذاك الرجل حتى ذُعر؟

لا، ليس ذعراً، فهذه الحالة لا تتناسب مع شخصيته، إذاً لنقل أثار قلقه. لكن ما هو هذا الشيء؟

لكانت عرفت لو تجرأت ونظرت خلفها.

لكنها لم تفعل ذلك. فقد كانت تواجه مشكلة أخرى، ألا وهي الحفاظ على توازنها والنظر أمامها للحفاظ على سلامتها.

لقد بدأت تشعر أدريانا أنهما ينتقلان من مكان إلى آخر، ذلك لأن الجملين كانا يعدوان بخطوات كبيرة وذلك بسبب أرجلهما الطويلة، وبدأت قمم تلال رملية تلوح في الأفق أمام عينيها.

لكن هبوب عاصفة رملية فجأة جعل الجمل يخرج عن خط سيره، فصرخ بريس: «هوو.» لكن دامبو وبما أنه لم يكن قد اعتاد بعد على هذه الكلمة، لم يتوقف بل تابع سيره. لكن لحسن الحظ انحنى بريس وأمسك الرسن من يديّ أدريانا المبللتين بالعرق وشدّه كي يوقف الجمل.

تمسكت أدريانا بمقدمة السرج بينما كان بريس يحاول إيقاف الجمل وأغمضت عينيها، لكن فضولها دفعها إلى الالتفات إلى الوراء لتعرف ما الذي يحاولان الهرب منه.

وبعد ما رأت تلك العاصفة الهائلة من الرمال الحمراء

www.elromancia.com

التي تتجه نحوهما صرخت قائلة: «آه، يا الهي. أهذه عاصفة رملية؟»

«ليس تماماً... إنها كثبان رملية. إذا استطعنا عبور تلك القمة... والقمة المجاورة... يمكننا ان نتجاوزها. انها ترجع معظم الأحيان إلى تلك المنطقة الجافة.»

«إذاً ماذا ننتظر؟ لنتوجه إلى تلك التلال!»

فنظر إليها مندهشاً ثم ابتسم وركل جامبو قائلاً: «هيّا، هيّا.» وبعد تلك الكلمة تحرك الجملان بسرعة.

لم يتوقفا حتى اقتربا من سلسلة أخرى من الروابي وبسبب وعورتها، أبطأ الجملان من سرعتهما عند تسلّقهما إحداها.

وصل بريس إلى القمة وانتظر وصول أدريانا ثم قال مشيراً: «تقريباً إلى هناك.»

نظرت أدريانا إلى حيث أشار ويا لروعة ما رأت. فعلى بُعدٍ ليس أكثر من نصف ميل، حضنت مجموعة من الروابي القليلة الارتفاع بحيرة صغيرة محاطة برمل أبيض، وشجر الكافور، وأعشاب شديد الخضرة.

«ما هذا، أهي واحة؟»

فرد قائلاً: «واحة مؤقتة.»

«مؤقتة؟»

«لا أعني انها ستختفي بين ليلة وأخرى، لكنها ستبقى لمدة شهر أو شهرين، وبسبب تلك الحرارة ستجف بعد ذلك. فهي تتكوّن عندما يفيض النهر في الشمال مثلما حصل في فصل الشتاء، فقد فاض النهر مرتين. رغم أنه قلّما يكون الشتاء غزيراً هنا.»

فتنهدت وقالت: «جيد لأن ذلك حصل هذا العام.»

«مسكينة يا أدريانا، لا بد وانك انهكت. آسف لما حصل ولكنك تعرفين السبب.»

كان للطافته غير المتوقعة وقعٌ كبيرٌ عليها، أكبر من أي مجاملات. فقد بدأ يخفق قلبها بسرعة، تشنجت معدتها، والأسوأ من ذلك كله، أخذت الدموع تنهمر من عينيها.

فتنهّد قائلاً: «ما بالك يا فتاة المدينة؟» ثم أمسك رسن جامبو وبذلك لم يعد لأدريانا أي عمل تقوم به سوى إمساك السرج بينما يقود هو الجمل بروية. وبما انهما لم يتحدثا، فقد زاد ذلك في تهدئة روع أدريانا.

فقالت في نفسها وهي تمسح دموعها انه لم يكن فظاً، لم يكن حقاً...

أبداً لم يكن كذلك، قالت بحسم. فعندما كانا قرب حطام الطائرة، استفزّته، كانت فظة، لكنه، ما عدا ما يخص القبعة، كان صبوراً للغاية.

الأمر الوحيد الذي استطاعت ان تفكر به هو الحالة التي كانت تعيشها. فقد قرأت عن سجينات يغرمون بسجّانهم، هل هذا ما هي عليه؟ هل سلبها ذلك الحادث والصحراء ثقتها بنفسها، الأمر الذي جعلها تستسلم لشخصية بريس المستبدة بطريقة لا يمكن ان تسمح بها في حياتها الطبيعية؟ أو ان هناك في داخلها ذلك الاحساس الأنثوي بالعنف، ذلك الإحساس الذي تكرهه، والذي يجعل المرأة تعطي كل ما لديها، إرادتها، جسدها، وأحياناً كل حياتها لرجل غير مناسب أبداً، وكل ذلك تحت عنوان ما تسميه الأنثى الرومانسية؟

www.elromancia.com

شعرت برعشة في داخلها بينما كانت تجول في خاطرها تلك الفكرة الأخيرة. ثم تابعت تقول في نفسها ان ذلك لا يمكن أن يكون. ولن تسمح بأن يكون! آلان هو الشخص المناسب لها... آلان، الذي لم يعكّر صفو مزاجها، لم يتحكم بحياتها، الذي أراد فقط ما تستطيع هي إعطاءه إياه...

تمتمت باستهزاء: «الرومانسية.»

فاستدار بريس وسألها: «هل قلت شيئاً؟»

احمرّت وجنتاها وكانت سعيدة لأن قبعتها انزلقت إلى الأمام لتحجب اضطرابها.

ثم قالت: «لا شيء مهماً، كنت فقط أشتم البعوض.»

وأخذت بعد ذلك تضرب البعوض بعيداً عنها.

«لحسن حظي اني لست بعوضاً.»

مرة ثانية ابتسم تلك الابتسامة الباردة، ومرة ثانية أيضاً استجاب شيء ما في داخلها لتلك الابتسامة، وسدت فمها لتحجب أي ابتسامة قد ترتسم على وجهها، وحاولت جاهدة ان تستعيد حالتها الطبيعية. وما أراحها أكثر هو أنها رأت الغضب في عيني بريس، وأكثر من ذلك عندما رأت ان اهتمامه الكلّي قد وجّهه إلى الكلب الأبيض والأسود الذي كان يقبل نحوهما.

فترك بريس رسن الجمل واستدار إلى جهة واحدة ثم فتح ذراعيه وقال: «تعال، يا بوللي.»

كانت تتساءل أدريانا كيف يمكن لكلب ان يقفز لعلوّ كهذا عندما قام بوللي بذلك، وقد ظهر جلياً حبه لصاحبه من لعقه بجنون وجه بريس الذي كان يداعب كلبه برفق وحنان...

اضطربت أدريانا لرؤيتها ذلك، وقد أزعجها رد فعلها

هذا. بالتأكيد لا يمكن ان يكون ذلك غيرة من حب رجل لكلبه، هل يمكن ذلك؟

لكنها أدركت أن إحساسها هذا لم يأت من فراغ. إنها الغيرة. ولكن غيرتها كانت أكبر بسبب قدرة بريس على التعبير عن أحاسيسه دون تحفّظات. فهي لا تتخيل أنها في أية لحظة من لحظات حياتها قد تتصرف بالطريقة ذاتها وقد أزعجها ذلك. آه لكم تمنت لو انها تستطيع التعبير عن كلّ ما تكنّه في داخلها طوال حياتها. كل مخاوفها.

مخاوفها؟

لكنها لم تكن يوماً جبانة! كل ما كانت تفعله هو بمثابة حماية نفسها مما يهدّد حياتها، من أمور لا تستطيع التعاطي معها. لم تكن قاسية القلب أو باردة. ففي داخلها كانت مثل أي شخص آخر، تحتاج إلى شخص تهتم به، ويهتم بها.

وهي تعلم كذلك منذ سنوات أنها لن تقع في غرام أحد وتتزوج. إذ انها غير قادرة على تسليم نفسها وحياتها لرجل بهذه الطريقة، رغم انها الآن في هذه الحالة. فالزواج من آلان أمر مختلف لأنه لن يطلب منها أن تترك عملها أو تتنازل عن استقلاليتها. لن يطلب منها تغييراً كبيراً أو القيام بتضحيات قاسية.

وبينما هي تفكر، نظرت إلى بريس بطرف عينيها، وقالت في نفسها انه لا يمكن أن تكون لهذا الشخص الميزة التي سيمنحها اياها آلان. إذ ان أية امرأة في حياته ستكون جارية له، تستطيع تحمل غيابه الطويل دون أي علم، ترضى أن تنتظره حتى يقرّر العودة. الزواج من رجل كهذا، حتى دون أطفال، أمر لم تحتمل التفكير به!

www.elromancia.com

وهزت رأسها متسائلة لماذا يسيطر عليها هذا الانجذاب نحو هذا الرجل؟ لماذا؟

سألها بريس مستأنفاً الحديث بينما كان ينزل الكلب إلى الأرض: «ألا تحبين الكلاب؟»

«لماذا تسأل مثل هذا السؤال؟»

«لأنك كنت تهزّين رأسك وترمقين بوللي المسكين بواحدة من نظراتك الرافضة.»

«آه...» وأحسّت بوخز في ضميرها، فكم من نظرات الرفض قد نظرتْها إلى بريس حتى الآن؟ ثم قالت بطريقة حاولت ان تكون ألطف: «لا أبداً. في الحقيقة لم أكن أنظر إلى كلبك. لقد كنت شاردة الذهن.»

«بالنظر إلى وجهك، أقول انها أفكار مزعجة ربما.»

ارتبكت أدريانا وقالت: «نعم، أنا...» ثم توقفت عن الكلام، لكنه لم يقل شيئاً في انتظار أن تكمل حديثها. أحست أدريانا ان عليها الاعتذار، لكن شيئاً ما في داخلها كان يجعل ذلك أمراً شديد الصعوبة. لماذا، لم تكن متأكدة من السبب؟ ربما لم تكن تريد ان تُظهر ضعفها أمام هذا الرجل الذي أثبت قوته في كل المواقف.

أخيراً قالت: «لقد... لقد كنت أفكر كم كنت فظّة معك عندما كنّا قرب حطام الطائرة. وبما أني...»

لم يستطع أن يخفي نظرة الدهشة في عينيه، لكنه لم يقل شيئاً هو الآخر.

«أنا... أنا آسفة.»

فردّ مستغرباً اعتذارها: «لا تفكري في الأمر، لقد كنت مصدومة، ولا أعتقد انك عادة بهذه الطباع.»

لم تستطع قول شيء حيال ذلك، وشعرت بالإحراج عندما فكرت أنها سببت له كل ذلك الإزعاج بسبب أمور هو غير مسؤول عنها، خاصة بعد كل ما فعله من أجلها. فهو لا يستطيع شيئاً حيال كونه جذاب. أو ان عليه ان يبقى برفقة امرأة ولسبب ما تحوّلت إلى مهووسة. فالأمر كان منوط بها أن تراجع نفسها. وأن تُبقي مشاعرها مخفيّة تماماً.

سلّمت أدريانا بفكرة، بما ان بريس أقرب إلى الرجال الذين لا يفرضون نفسهم على امرأة، فإن الأمر سيكون مختلفاً إذا ما اعترفت هي له بذلك.

فهو، رغم كل شيء، رجل مثير وهي تشك في أنه إذا ما بدأ بذلك فمن الصعب إيقافه. ومن يعلم كم مضى على وجوده في هذه الصحراء؟

قررت أدريانا عدم سؤاله، وعوضاً عن ذلك أبدت ملامح ارتياح على وجهها وسألته: «ما الإسم الذي ناديت به كلبك الآن؟»

«بوللي.»

فعادت وسألت مبتسمة: «وهل هو كذلك الآن؟»

فنظر إليها نظرة دهشة مرة أخرى، وكأنه لم يكن يتوقع أن تكون قادرة على الابتسام.

تنفّست أدريانا الصعداء عندما وجّه بريس نظره إلى كلبه الذي كان يتحرك بفرح وقال: «لم يعد كذلك، أليس كذلك؟»

أخذ بوللي ينبح كردّ على ما سأله بريس، ثم توجّه نحو الواحة، لكنه توقف بعد خمسين ياردا تقريباً، وأخذ يدور وينبح.

«إنه مرح.»

«أجل... هكذا ربيته.»

لم يكن لديها أدنى فكرة عن طريقة تربيته. فهو كلب متوسط الحجم، ذو أنف غليظ، وأذنين صغيرتين مرقطتين، ووبر أبيض وأسود.

ثم استأنفت الحديث ثانية وسألت: «أي نوع من الكلاب هو؟»

«إنه هجين زواج نوعين من الكلاب. لقد أمضى الستة أشهر الأولى من عمره لا يدري ما إذا كان عليه حراسة البقر أم قتلهم!»

وعندما علا نباح بوللي قال بريس: «دعينا نستأنف سيرنا قبل ان يصاب بانهيار عصبي.» وبعد ان باشرا المسير، عاد فاستكمل حديثه قائلاً: «قبل بضع سنوات أتى شاب إلى دوفر داونز ليصوّر فيلماً وثائقياً عن هذه المنطقة، وكان مصطحباً كلب صيد أبيض شرساً جداً أخاف كل من يعيش هنا، باستثناء إحدى كلاب المزرعة، التي أنجبت ست جراء بعد ان انتهى تصوير الفيلم الوثائقي وغادر الفريق. وقد كان خمسة من هذه الجراء صورة طبق الأصل عن الكلبة الأم... وبوللي، لا يمكنك ان تتخيلي الفوضى التي سببها هذا الجرو، فقد كان يتحرش بكل شيء يتحرك! السبب الذي أدّى إلى اتخاذ قرار بقتله، ولكنني استطعت الحصول على إعفاء واصطحبته معي في جولتي التي قمت بها العام المنصرم.»

فعلّقت أدريانا وهي متشوقة للقصة التي تسمعها: «وبعد ذلك؟»

هز بريس كتفيه العريضتين قائلاً: «قرّرت إبقاءه معي.»

«كيف؟»

«إن التغيير الذي يطرأ على شخصية الإنسان عندما

يعيش في الصحراء أمر مدهش، فالصحراء تمتص كل غضب الإنسان وعدائيته، وتجعله ينظر إلى داخله ويفكّر بأهم الأمور التي عليه القيام بها... حتى أنّ بوللي هدأ ووجد أنه من الأفضل ان نكون أصدقاء من ان نتقاتل. أضف إلى ذلك، انه لم يكن هناك شخص آخر يتعامل معه، والكلاب كالإنسان تحتاج إلى الحب والرفقة. وها نحن أصدقاء منذ ذلك الحين.» ثم أنهى حديثه بنظرة من تلك العينين الزرقاوين إلى عينيها.

جفّ حلق أدريانا من شدة اضطرابها وأخذت تفكر في ما إذا كان هناك ثمة رسالة تُوجه إليها من خلال هذه النظرة؟ وشعرت بعد ذلك بصوت في داخلها يقول، أدريانا وينسلو، لقد بدأت تكونين سريعة التأثر بالكلام! لا بد وأنّ الصحراء بدأت تؤثر بك.

لماذا يجب ان تكون هناك رسالة أراد توجيهها إليك؟ أما فكرة أن بريس ربما يفكّر في ترويضك، في جعلك رفيقة، فهي فكرة حمقاء! فالرجل تركك تسيرين خلفه، إلى هذه الدرجة هو يريدك رفيقته! احترسي، تماسكي وكُفّي عن التصرف كمراهق مهووس أحمق! فهو بالطبع لن يستغل وجودك معه لبعض الوقت كي يبقيك معه! وكذلك فإنه بالطبع لن يحاول إغواءك. فكل ما فعله هو إخبارك قصته عن كلبه. باختصار مفيد، تماسكي!

كانت أدريانا تتمنى ان تحصل على إجابة واحدة لكل تلك الأسئلة التي كانت تدور في رأسها. وقد قطعت أدريانا المسافة المتبقية من رحلتها دون ان تشعر بآلامها، أو بالجوع أو بالعطش.

فقد كانت منشغلة بمساءلة ذاتها ومعاتبتها لدرجة أنها لم تشعر بوصولهما إلى ضفة النهر إلا عندما حنى دامبو رقبته فجأة.

فسألها بريس: «هل تحتاجين للمساعدة كي تترجلي عن ظهر الجمل؟ فأنا أريد ان أريح الجملين لبعض الوقت وأن يحصلا على قدر وافٍ من شرب الماء.»

«لا شكراً، أستطيع فعل ذلك.»

لكنها لم تستطع بسبب جسدها المنهك، رغم أنها حاولت أن تفعل ما رأت بريس يفعل بكل سهولة، لكنها عجزت عن ذلك.

فمدّ يديه إلى الأعلى وقال: «هيا، أديري جسدك إلى جهة واحدة واسترخي وأنا سأمسكك.»

فعلت كما قال لها ولكن بصعوبة، لتجد نفسها بعد ذلك منتصبة على قدمين ضعيفتين لا تستطيعان حملها، فتأوهت من جراء ذلك.

فأسندها إليه وقال: «لا تشعرين انك بخير، أليس كذلك؟»

وكل ما استطاعت قوله هو: «أجل.»

«لديّ فكرة.» ثم فكّ الوشاح من حول رقبتها ونزع القبعة عن رأسها ورماها ثم حمل أدريانا بين ذراعيه.

فسألته بصوت أجش: «ماذا تفعل؟» وهي تحاول التقاط أنفاسها متجاهلة طريقة وجودها بين ذراعيه، فإحداهما تلتف حول خصرها والثانية حول رجليها.

فأجاب مبتسماً: «انتظري وسترين.» ثم أخذ يمشي على طول ضفة النهر التي تتميز بلون رملها الأبيض. تجمدت أدريانا بين ذراعيه وبدأت ترتجف.

فقال لها مطمئناً: «اطمئني، فلن أوقعك.»

أخذت أدريانا تتساءل في نفسها. يوقعها؟ لم تكن قلقة من أنه قد يوقعها! لكنها كانت تفكر في شيء آخر. ثم راحت تنظر عبر الأشجار التي تحيط بالنهر إلى السماء.

ولعلّه شعر باضطرابها وخوفها، لأنه نظر إليها بعينيه اللامعتين وقال: «المياه هنا غير عميقة، يمكنك الاستلقاء لتريحي جسمك حالما أحضر لك شراباً.»

فأغمضت أدريانا عينيها موافقة. عندما وضعها في تلك المياه الدافئة وذهب.

«أعلم أن ذلك مؤلم لكنه سيساعد على الاسترخاء. هيا... دعيني أساعدك على نزع سترتك إذ أني أشعر أنها تزعجك، ذلك أفضل أليس كذلك؟ سأعود بعد قليل.»

تبعت أدريانا بريس بعينيها تتأمله في كل خطوة قام بها حتى وصل إلى خيمته، ورمى بسترتها جانباً، ثم توجه إلى الجهة الأخرى من النهر حيث المياه أعمق، نزع حذاءه وقبعته ثم غطس في الماء، الأمر الذي جعل بوللي يبدأ بالنباح.

همت أدريانا جالسة من الخوف بعد مرور ثوانٍ عديدة دون ان يظهر بريس، ثم ظهرت إحدى يديه تحمل زجاجة شراب ثم ظهر هو قائلاً: «نجحت.»

خرج بريس من الماء، وثيابه مبللة. أرادت ان تحول نظرها عنه، ولكنها لم تفعل. وعندما نظر إليها وجدها لا تزال جالسة تحدق به وقال: «استلقي ثانية وسأحضر لك كأساً من الشراب البارد.»

فأغمضت أدريانا عينيها واسترخت، لكن عقلها ومخيلتها... كانا يفكران بأمور أخرى.

www.elromancia.com

وراحت تفتح وتغمض عينيها مراقبة بريس وهو يصل إلى خيمته ويفتح زجاجة الشراب، ويحضر كأسين ثم يقبل نحوها.

ابتلعت أدريانا ريقها لدى رؤيتها بريس يتوجه نحوها إلى الماء، وقميصه المبتل يظهر عضلات صدره البارزة وهو يبتسم.

سألته: «ما المضحك في الأمر؟»

أجاب مبتسماً: «وجهك متّسخ جداً.»

راحت أدريانا تفرك وجهها بالماء الدافىء بقوة، ثم نظرت إليه وسألته: «الآن أفضل؟»

جلس إلى قربها وأجاب: «أفضل بكثير.» بعد ذلك ملأ لها كأساً من الشراب وقدّمه لها قائلاً: «كل ما تحتاجينه الآن هو نصف زجاجة من هذا الشراب لتشعري بتحسن. وهو كذلك سيساعدك على استعادة طباعك الدمثة.»

أخذت الكأس من يده وابتلعت ما بداخله دفعة واحدة.

فقال مستغرباً: «آه، لا بدّ وانك عطشى لا تقلقي، هناك الكثير من هذا الشراب. فقد دفنتُ ست زجاجاتٍ تحت الطين في قعر النهر، العام الفائت.» ثم صبّ لنفسه كأساً وشربه وعاد يتابع قائلاً: «رائع... تفضلي، استزيدي.»

رفعت الكأس برويّة واحتست الشراب ببطء.

لكن، وبالرغم من ذلك، فقد أثّر الشراب على أدريانا فلم تعد تشعر بأي ألم أو اضطراب، ولم تعد تفكر سوى بما يحيط بها مباشرة ـ النهر، المياه الدافئة التي تثير استرخاءها، والرجل القابع إلى قربها.

أطلقت أدريانا تنهيدة قامت بعدها بإنزال جسمها بأكمله

إلى الماء، الأمر الذي جعل عينيها تلتقيان بعيني بريس.

وقد فاجأتها تلك النظرات التي كانت تتأملها.

غير ان بريس لم يفاجأ، حتى أنه لم يحاول الاعتذار، بل سيطر على نفسه لتتحول تلك النظرات في عينيه إلى نظرات باردة جداً وقال: «أنت جميلة يا أدريانا، ولا تتوقعي مني ألا أنظر إليك، فأنا رجل طبيعي جداً وليس من الرجال الذين يلفّون ويدورون. أنا أعرف من وماذا أحب.»

ثم صبّ لنفسه آخر ما تبقى من شراب في كأسه وشربه، ورمقها بنظرة قاسية قال بعدها: «لكن لا تقلقي، لن أقترب منك. رغم انني أجد نساء المدينة جميلات جداً، لكنني لست ضعيفاً لدرجة أن أفرض نفسي على إحداهن، خاصة إذا كانت مرتبطة. لكن بصراحة، يا سيدتي العزيزة... إذا اردت ألا أقترب منك، فأرجو ألا تنظري إليّ بالطريقة التي فعلت قبل دقائق.»

ذُهلت أدريانا مما سمعته وقالت في نفسها إذاً، لقد رأى تلك النظرة في عينيها. آه، كيف يمكن لها أن تكون قد وضعت نفسها في مثل هذا الموقف المحرج.

ليس هناك سوى طريقة واحدة للخروج منه، طريقة تنقذ كرامتها وتمنع موقفاً حساساً من التطور. لكن هذه الطريقة تتطلب كل ما لديها من رباطة جأش وهدوء أعصاب.

انتصبت جالسة في الماء ورفعت حاجبها الأيسر وأخذت تنظر إليه نظرات فيها جدية واضحة. وقالت: «أنت أيضاً وسيم جداً، يا بريس. إذاً، لا تتوقع مني ألا أنظر إليك. فأنا امرأة طبيعية جداً. ولست من السيدات اللواتي يتجولن بين قطعان ماشيتك. لكن لا تقلق، لن أحاول الاقتراب منك، فأنا

www.elromancia.com

رغم انني أجدك وسيماً، إلا انني أفضل الرجال الأكثر تمدّناً منك. وأنا طبعاً لم أنس أنني امرأة مخطوبة، لكنني أعرف أن هناك أشخاصاً غير مخلصين، ويتأثرون سريعاً بما حولهم، لكنني لست واحدة منهم!»

للحظات قليلة، ساد صمت حذر، وعينا بريس تحدقان بعينيها. لكن عندئذٍ، اعترى أدريانا شعور بالخوف. هل بالغت فيما قالته؟

أدار بريس رأسه إلى الوراء وراح يطلق ضحكات بصوت عالٍ.

لم يكن في استطاعة أدريانا فعل شيء سوى النظر إليه بدهشة، إذ يبدو أن كلامها الذكي وسخريتها لم يستطيعا أن يؤثرا في هذا الرجل.

وقف بريس وهو لا يزال يضحك وقال: «سأقول لك شيئاً واحداً، يا أدريانا، أنت لست مملة!» ثم أخذ كأسها الفارغ وتوجه نحو ضفة النهر بخطوات واسعة، تاركاً إياها مشدوهة الفم تحدّق به. وما أن وصل إلى الرمل حتى أخذ يربت على بوللي، ثم وجّه نظره إليها.

«عليّ ان أرتّب أمتعتي وأضرم النار قبل حلول الظلام، ابقي في الماء، فلن أحتاج إليك في شيء، إذ انني وفي الوقت الذي سأعلمك فيه ما عليك القيام به، أكون أنا قد قمتُ به مرات عديدة.»

كانت أدريانا لا تزال تشعر بالصدمة والإهانة... وقوله لها الآن انه لا يحتاجها في شيء كان أمراً يصعب احتماله! فقالت: «أريدك ان تعلم انني... ان تعلم انني...» ثم حاولت الوقوف فلم تستطع، بسبب ثيابها المبللة وقواها الخائرة.

فرمقها بنظرة غاضبة وقال: «عليك ان تستحملي، ربما كنت تأمرين وتنهين حيث كنت، يا عزيزتي، لكنك هنا لست سوى زينة، إذاً اسدي لي ولك خدمة. افعلي كما يقال لك من الآن فصاعداً، دون نقاش، وطبعاً دون تحليلاتك الذكية، وسيكون كل شيء على ما يرام. اتفقنا؟»

فردت بنبرة عصبية: «اتفقنا.» ثم جلست وضمت يديها إلى صدرها، تحدق به بنظرات ثائرة.

فابتسم ابتسامة أخبرتها بأنها متعجرفة وقال لها: «أنا مسرور لأنك تتعلمين بسرعة. أنت لم تفهمي أنك لولا عجرفتك، لربما اصبحنا صديقين.»

قال كلامه هذا وذهب تاركاً إياها تحترق من شدة الغضب وإهانته لها.

لكن ما حصل محا تماماً أي انجذاب كانت تشعر به حيال هذا الرجل. فهي لا تستطيع ان تصدق كيف رغبت به ولو للحظة! فهو اسوأ مما فكرت به في البداية. إنه أناني، متسلط من الدرجة الأولى! وهو يقول انها هي متسلطة. تباً له! ليته تركها تموت!

كانت أدريانا تراقبه وتتمنى أن يقوم بأي خطأ حتى تسخر منه، لكنه قام بفعل كل شيء على أكمل وجه! فقد أفرغ حمولة الجملين، ثم حل وثاقهما ليأكلا. وأضرم النار، وحضّر الطعام لهما. حتى أنه حضّر الطعام لكلبه بوللي.

بعد حوالي نصف ساعة، حيث أصبح كل شيء جاهزاً تقريباً، حمل البطانية التي كانت في طائرتها ثم وقف على الضفة المواجهة لمكان وجودها.

وقال: «عليك ان تنزعي عنك تلك الثياب المبللة ولفي

www.elromancia.com

نفسك بهذه البطانية ولا تقلقي فثيابك ستجف بسرعة قرب النار. وقبل ان تقولي تلك الكلمة، لا، لن أنظر إليك. إلا إذا أردت أنت ذلك.»

استطاعت أدريانا ان تسيطر على نفسها بصعوبة ثم قالت: «اعتقد انني سأغضّ النظر عن ممازحتك هذه المرة.» حاولت بعد ذلك الخروج من الماء.

فاقترب وهو يمد يده ليساعدها على الوقوف، فقبلت مساعدته وعندما وقفت، كانت ثيابها المبللة ملتصقة على جسمها تماماً.

سمعت أدريانا لهاثه السريع وشعرت بأصابعه تلتف حول يدها، فحوّلت نظرها إليه لتجد عينيه تنظران إليها غير مباليتين لردة فعلها.

«حسناً، لقد نظرت ثانية، وقد أثرتني هذه المرة. ماذا يفترض بي أن أفعل؟ أن أعتذر كوني رجلاً طبيعياً؟»

«أنت... أنت قلت انني استطيع الوثوق بك...»

وللمرة الأولى ترى ملامح الغضب بادية على وجهه حين قال: «نعم تستطيعين.»

«لكن...»

وتضرج وجهها، وبدأت تتنفس بشكل سريع، دون أن تضيف شيئاً.

وفي تلك اللحظة وصل قطيع من الجمال إلى مكان وجودهم.

الفصل الرابع

أقبلت الجمال من وراء التلال الرملية مثيرة غيوماً من الغبار الأحمر، يتقدمها جمل ضخم يصدر أصواتاً عالية.

فصرخ بريس وقد علت جبهته عبسة أخفت كل شيء إلا القلق: «اللعنة» ثم ترك أدريانا وتوجّه نحو دامبو وجامبو اللذين كانا يرعيان تحت شجرة صمغ، أمسك رسنهما وربطهما جيداً بجذع الشجرة قبل أن يتوجه إلى الخيمة ويحضر بندقيته.

سدّد البندقية فوق رأس الجمل الأول وأطلق رصاصة لإخافة الجمال وراح يصرخ: «ابعدوا عن هنا، أيها الغرباء!» ثم توجّه إلى بوللي الذي فرّ هارباً: «إنتبه لنفسك.» ثم إلى ادريانا قائلاً: «إنّ هذا الجمل شرس. أدريانا، بحق السماء عودي إلى الماء.»

لكنها لم تستطع الحراك، متجمدة في مكانها من الخوف لدى رؤيتها بريس وبوللي يركضان في اتجاه ذلك الجمل الضخم وبوللي يعضّ ساق ذلك الجمل مرات عديدة متتالية، الأمر الذي جعل الجمل يرفس بوللي برجله الطويلة ولكنه لم ينجح في ذلك. وظل بوللي يقوم بذلك حتى تراجع ذلك الجمل إلى الوراء، ليفعل مثله من وراءه من الجمال، لتتوقف عند حدود المخيّم، هائجة بسبب العطش والخوف والجمل الأول يقترب ويبتعد محاولاً الشرب رغم وجود الرجل والكلب.

www.elromancia.com

أطلق بريس رصاصة ثانية وراح يصرخ: «ابتعدوا من هنا! هناك الكثير من الماء في الجوار.»

بعد قليل هربت كل الجمال.

وفي الوقت الذي عاد فيه بريس إلى المخيم، كانت أدريانا لا تزال واقفة في مكانها ترتجف عند حافة النهر، ترتجف من الخوف والبرد. فقد غابت الشمس وحل الظلام بسرعة بينما كان العراك دائراً مع الجمال.

وقف بريس ينظر إلى أدريانا، واضعاً إحدى يديه على خاصرته، والبندقية في اليد الثانية وكان يبدو على وجهه الغضب والقلق معاً.

فقال لها: «أنظري إلى نفسك، تقفين هنا ترتجفين! لماذا لم تنزلي إلى الماء؟ على الأقل ستشعرين عندئذٍ بالأمان والدفء.»

فحاولت التكلم وأسنانها تصطك من البرد: «أنا... أنا...»

رمى بريس البندقية من يده، وأخذ البطانية ووضعها حول كتفها قائلاً: «يا إلهي! تعالي، دعينا نتوجه إلى مكان دافىء.» ثم توجها نحو المخيّم وتابع قوله: «هنا... إجلسي هنا حتى لا تتّسخ ثيابك ثانية. ولا تهتمي لنزعها عنك لأنها ستجف. مثل ثيابي.»

جلست على البطانية الرمادية السميكة ومالت نحو النار، وراحت تنظر إلى النار دون أي حركة ودون أن تفكر في أي أمر. فتوقف الارتعاش سريعاً، لكنها بدت وكأن عقلها وجسدها توقفا عن العمل، ولعل سبب كل ذلك هو ما حصل معها خلال اليوم إضافة إلى ما حصل مع الجمال.

جثا بريس إلى جانبها ورفع خصلات من شعرها المبلل وراء أذنها اليمنى، فأحست برعشة في داخلها.

قال مؤكداً: «ما تحتاجينه هو فنجان من الشاي الساخن. سأفكّ وثاق الجملين وأحضر لك فنجاناً.»

عندما أحضر الشاي بعد بضع دقائق، أمسكت أدريانا الفنجان بيديها الاثنتين وأخذت ترشف الشاي بسرعة، دون أن تتذكر حتى أن تشكره.

لكن بريس كان محقّاً. فالشراب الساخن جعلها تشعر بحال أفضل.

إن الشاي المنعش والحرارة جعلا عقلها ولسانها يعملان من جديد، ثم نظرت إلى حيث كان يجلس على جذع شجرة يشرب الشاي، وتبدو على وجهه علامات القلق. وعندما التقت عيونهما ودون أن تفكر بما كانت تفعله، إبتسمت وقالت له: «شكراً.»

مسحوراً بتلك الابتسامة قال سائلاً: «أتقصدين أنك سامحتني؟»

فردّت مؤكدّة: «ليس هناك ما أسامحك عليه.» وهي محقّة. فما الذي فعله غير أنه استجاب لإغواء إمرأة له كأي رجل طبيعي؟ لقد كانت رغباتها التي جعلت الموقف يبدو أكثر خطورة مما كان عليه، رغبات كان على أدريانا التغلّب عليها. ثم تابعت كلامها: «لقد بالغت في التصرف، أنا آسفة.»

وقد أربكت أدريانا نظرة الإنزعاج تلك التي رأتها في عيني بريس.

ألم يكن يريدها أن تعتذر؟ ألم يكن يريد أن يكونا صديقين، على الأقل، ظاهرياً؟ حوّل بريس نظره إلى النار وعلى وجهه تجهّم يشوّه وجهه الجميل.

خيّم الصمت على المكان، حاولت أدريانا إيجاد موضوع يتحدثان فيه وقررت الكلام عن الجمال: «هل يحدث غالباً هذا النوع من الأمور هنا؟»

هزّ بريس رأسه نافياً وقال: «بحق السماء!» ولكنه عندما رأى الدهشة في عينيها، تحوّل التجهّم في وجهه إلى إبتسام وقال: «آه... تعنين الجمال.»

وعندما قال جملته الأخيرة، أدركت ما الذي قصده قبل ذلك.

«لا... ليس غالباً. لكن المكان هنا عرضة لأمور من هذا النوع اكثر مما يتصور الناس، وبعضها لا يمر بسلام. عليك أن تكوني متأهبة لذلك دائماً.»

«كيف استطاعت الوصول إلى هنا؟ أعني... انها ليست استرالية، أليس كذلك؟»

رفع بريس الغطاء عن الوعائين اللذين كانا على النار وراح يحرّك الطعام ويقول: «لا، لقد أحضرت من أفغانستان القرن الماضي لنقل البضائع والطعام للعمال الذين كانوا يبنون خطوط الهاتف وسكة الحديد عبر الصحراء. والطريف في الموضوع أن اصحاب العمل أضافوا إلى اعبائهم عبئاً جديداً، إذ أنهم بعد الانتهاء من إنجاز سكة الحديد، لم يعودوا في حاجة إلى هذه الحيوانات. لذا، وعوضاً عن دفع تكاليف باهظة لاعادتها إلى بلادها، اطلقوها في البراري. والأمر ذاته يحدث بالنسبة إلى الحمير والأحصنة لكن المشكلة الأكبر تبقى مشكلة الجمال، فقد تجاوز عددها الثلاثين ألفاً.»

هزّت أدريانا رأسها مندهشة وقالت: «ثلاثون ألفاً. إنه رقم هائل!»

«أجل. وأؤكد لك أن الكثير من رعاة المواشي لا يعرفونها.»

فقالت أدريانا وهي تشير إلى دامبو وجامبو اللذين كانا يرعيان في الجوار: «لكن يبدو أن وجودهما لا يسبب مشكلة لك؟»

«أنا لا أستطيع تحمّل الشرسة منها. فهي ليس فقط تقضي على المراعي، لكنها أيضاً متوحشة. لكن دامبو وجامبو ليسا مثلها. فهما أليفان ومدربان جيداً؟»

تنهّد بريس وقال: «أين توقّفْتُ؟ آه، أجل... العشاء.» ثم توقف عن تحريك الطعام وذهب لإحضار صحنين وشوكتين.

فسألته محاولة أن تجعل محور المناقشة أقل خطورة: «ماذا تطهو؟»

«نوعين من الطعام! وعلى سيدتي أن تختار، يمكنك اختيار الفاصوليا مع الخضار أو الخضار مع الفاصولياء. فكرّي ملياً ولك حرية الاختيار. لكنني أؤكد لك انك مهما اخترت، فإنك ستشعرين بلذّة لن تشعري بها لدى تذوقك أي نوع آخر من الطعام في صحرائنا الرملية الكبيرة.»

حتى عندما يمازحها، لديه جاذبية لا تقاوم، الأمر الذي يجعل أدريانا تبقي مسافة ما بينهما. بدأت بالابتسام ثم ضحكت بصوتٍ عالٍ.

«إنها المرة الأولى التي أسمع فيها صوت ضحكتك.»

«حقاً؟ لكنني لا أستطيع التوقف عن ذلك، أنت السبب.»

«إذاً، نقطة لصالحي.» ثم قدّم لها صحناً يحتوي على طعامٍ ساخنٍ وشوكة. وتابع قائلاً: «لا اعتقد أنّ هناك من

يستطيع دفعكِ لفعل أي شيء، يا عزيزتي أدريانا. أدريانا ماذا؟» ثم رمقها بنظرة رقيقة.

حدّقت أدريانا به للحظة، مندهشة للسعادة التي اعترتها بسبب تلك النظرة، لكنها قررت تحويل نظرها عنه حتى لا يرى في عينيها ما لا تريد، ثم قالت: «وينسلو. وأنتْ؟»

«ماكلين.»

فتمتمتْ: «بريس ماكلين. جميل.»

«أنا رجل لطيف. مثلما أنتِ بالطبع إمرأة لطيفة.»

نظرتْ أدريانا إلى بريس نظرة تعجّبٍ لسماع مثل هذا الإطراء المزدوج. ومضى وقت وهما ينظران إلى بعضهما لكنها لم تكن نظرات إغواء، كما تعتقد أدريانا، بل على الأرجح محاولة لاكتشاف كليهما الآخر. كان هناك اهتمام ظاهر في تلك العينين الزرقاوين. إهتمام ودفء... وصراحة.

كانت أدريانا من حوّل نظره أولاً، وشعرتْ بشيء ما في معدتها. لقد أعجبها هذا الرجل، حقاً لقد اعجبها! لقد كان هذا استخلاصاً مزعجاً، إذ أنه اعطى لرغبتها الأولى تعريفاً مختلفاً.

لكن الانجذاب والاعجاب. أمر غير معروف بالنسبة إليها، وقريب جداً من مبدأ الحب الرومانسي. ربما هذا ما يفسّر عدم قدرتها على كبت مشاعرها. فالخوف من خوض تجربة كهذه ولد عندها هذا القدر من الذعر. والوقوع في غرام أحد، لم يكن ضمن الخطة التي رسمتها لحياتها، وليست لديها النية في أن تقوم بذلك. ليس الآن. وأبداً!

تنفست عميقاً ونظرتْ إليه نظرةً حادة، وكان هو لايزال

ينظر إليها، لم يكن قد أكل شيئاً من طعامه، وبدت على وجهه خيبة الأمل ظاهرة.

استأنفتْ أدريانا الحديث قائلة: «أعتقد أنني حالما أنتهي من الطعام سأخلد للنوم. فأنا متعبة جداً.»

نظر إليها نظرة عتب طويلة ثم هزّ رأسه ببطء.

«متى سنستأنف مشوارنا في الصباح؟»

فأجابها: «لا أعلم بالضبط.»

فسألت بإلحاح: «ألا تستطيع أن تحدد لي وقتاً؟»

ردّ مبتسماً ابتسامة باردة: «بعد الفطور.»

«آه، بحق السماء!»

فتحولت ابتسامة بريس إلى نظرة شفقة وقال: اعتقد أن السير لبضعة ايام في الصحراء سيعلمك أموراً كثيرة، يا أدريانا، أنت غير صبورة أبداً.»

«وأنت طويل البال جداً. فلا يمكننا أن نقضي حياتنا متجولين، أليس كذلك؟»

«يا للمسكينة.»

كانت على وشك الكلام، حين سيطرت على نفسها في اللحظة الأخيرة، فقد أحسّت بتحسنٍ كبيرٍ بعد أن عبّرت عما في داخلها. إذ أن علاقتها مع بريس كانت تتطور بسرعة، ربما لأن رجولته وجاذبيته قد أثارتا انوثتها، لكن عقلها كان يذكرها دائماً أن هناك صفات في شخصية بريس لا تفضّلها ادريانا.

فهو كان مسيطراً، أنانياً، رجلاً بكل معنى الكلمة، لكنه يفتقد الطموح. آه... هو كذلك لايستخدم ذكاءه رغم تمتعه به. لذلك فإنه من المستحيل أن تغرم بشخص مثله، مستحيل!

www.elromancia.com

أحست براحة كبيرة في داخلها. فقد أحسّتْ بأنها ثأرت لنفسها مما قاله وفعله معها. وبعد تنهيدة طويلة، بدأت تلتهم الفاصولياء بسرعة، أدركت بعدها كم كانت جائعة. واستمرت في الأكل بهذه الطريقة حتى أوقفها بريس سائلاً:

«هل تتجادلين مع خطيبك طوال الوقت؟»

ذُهلتْ أدريانا لمثل هذا السؤال، فتوقفت عن الأكل وأجابتْ: «بالطبع لا. أنا وآلان لا نتجادل ابداً.»

رفع بريس أحد حاجبيه، ووضع الشوكة في صحنه وقال مستهجناً: «ماذا؟ حبيبين لا يتجادلان، في رأيي هذا نوع غريب من الحب.»

فقالت بنبرة اظهرت تماسكها، رغم أنها أحسّت في داخلها بالاثارة تجاهه: «حقاً؟ أنا اعتقد أن هذا النوع من الحب يمكنه الاستمرار اكثر من الحب بين شخصين لا يتوقفان عن رمي اشياء على بعضهما.»

وفجأة، أحسّت أن ما كانت تفكّر به هو ما أرادت فعلاً أن تقوم به، فالتفت اصابعها حول الصحن الذي كانت تأكل منه.

«من تحدّث عن العنف؟ ما عنيته هو أنه إذا لم يكن هناك عاطفة عند بداية أي علاقة، عندئذٍ...»

فردّت مؤكدة: «هناك عواطف كثيرة بين آلان وبيني.»

ملأ بريس شوكته بالطعام، ووضعها في فمه، ثم نظر إليها نظرة ملؤها الشك وقال: «إن كنت تقولين ذلك.»

حاولت أن تسيطر على نفسها، وفي نفس الوقت كانت تتمنى لو أنها تستطيع أن تهجم عليه وتشوّه وجهه الجميل. ربما تهدأ عندئذٍ في داخلها تلك الرغبات المتضاربة... أن تلمسه وتؤذيه.

«لو أنك تعرف آلان، لما كنت قلت ذلك. إنه الرجل الأكثر وسامة وجاذبية. ولا بد أن يكون هناك العديد من النساء اللواتي يتمنين أن يكنّ مكاني! أن أكون زوجة آلان كارستيرز ليس بالأمر البسيط، صدقني!»

شعرت أدريانا بالسعادة لقولها ذلك الكلام، لدرجة أنها لم تنتبه إلى بريس الذي كان يحدق بها مندهشاً إلا بعد وقت قليل.

«بريس... ما الأمر ما الذي قلته فأدهشك؟»

«زوجة آلان كارستيرز، آلان كاستيرز؟ عجباً...»

«أنت.. أنت تعرف آلان؟»

فهز رأسه ايجاباً وقال: «إذا كان آلان كارستيرز الذي يعيش في فاكلوز وصاحب محلات الألبسة الرجالية، إذاً أجل، أنا أعرفه.»

«لكن... لكن كيف؟»

فرمقها قائلاً: «هل يجب أن تظهر هذه المفاجأة عليك لدى كل أمر تعرفينه عني؟ أنا لست بجاهل، يا سيدتي العزيزة، أو انني شخص أمضى حياته في البراري. لقد عشت في سيدني فترة عندما كنت صغيراً مع أقارب لي، هم جيران خطيبك الجذاب في الحقيقة، لقد كنتُ صديق سكرتيرته لوقت قصير. لكنه في ذلك الحين لم يكن جذاباً جداً. لقد كان وغداً.»

كانت أدريانا على وشك ان تعترض حين قاطعها بريس وهو يضحك باستهزاء:

«آه، لا تسيئي فهمي. لم يكن وغداً مع النساء. فحسب معلوماتي، لم يكن في حياته أية امرأة. فلم يكن لديه وقت

سوى للعمل، العمل، العمل، أربع وعشرون ساعة يومياً، سبعة ايام في الأسبوع وكان الحظ في عون أي من موظفيه الذي لا يتصرف بهذه الطريقة!»

«وما الضير في أن يكون الانسان طموحاً!»

«بالطبع هناك ضير. إذا كان العمل على حساب كل شيء آخر. مثلاً، فهو لم يتوقف عن العمل ليذهب لحضور مأتم والده!»

قالت مدافعة رغم الدهشة التي اعترتها من حديث بريس: «لكن ذلك كان منذ عشر سنوات على الأقل.» ثم قالت في نفسها انها حضرت مأتم والدها، وشكت في ألاّ يكون هناك سبب للآخرين كي لا يفعلوا ذلك.

فقال بريس وهو يحاول السيطرة على ثورته: «إذاً، حصل ذلك.» فقط عندئذ تساءلت أدريانا لماذا كانت ردة فعله عنيفة هكذا. فما الذي يؤثر عليه من تتزوج؟ فبعد أقل من اسبوع، سيكون كل منهما في طريقه ولن يرى أحدهما الآخر بعد ذلك.

«أنا متأكدة من أن آلان الذي تعرفه قد تغيّر.»

«أجل... لا بد أن يكون قد تغيرّ.»

فردّت أدريانا منزعجة مما قاله بريس: «أعتقد أن ذلك ليس من شأنك.»

«نعم، اعتقد أنه ليس من شأني.»

«إذاً، هلاّ توقفنا عن الحديث في هذا الموضوع؟»

«بالتأكيد.»

خيّم الصمت على المكان بينما كان كل منهما يكمل طعامه، وبعد ذلك أخذ بريس الصحون وراح يغسلها في وعاء بلاستيكي مملوء بماء النهر.

فقالت أدريانا ملاطفة: «كان عليك أن تتركني أفعل ذلك.»

نظر إليها وعلامات الاضطراب بادية على وجهه: «لماذا؟ لأنه وحسب التقاليد عمل النساء؟ لقد اعتقدت ان امرأة متحررة مثلك قد تشعر بالسرور لدى رؤيتها رجلاً يغسل الصحون.»

فقالت بتأفف: «لقد أردت أن اقوم بشيء لاساعدك، وهذا شيء لا يمكن أن تقول لي انني لن استطيع القيام به مثلك تماماً.»

فقال وهو يجفف آخر صحن بقطعة قماش صغيرة علقّها على عمود قرب النار: «حسناً، لقد انتهيت.»

لم يتبق من النار المشتعلة سوى رماد متوهج يرسل أشعة ذهبية على كل شيء لمسافة بضعة أمتار. حتى البقع البيضاء في جسم بوللي النائم على الرمل على بعد مسافة قصيرة من النار... عكست هذا اللون المتوهّج.

وبعد أن انتهى بريس من تفريغ الوعاء من الماء ووضعه مع باقي الأدوات. قال: «حان وقت النوم.» ثم أخذ تلك البطانية التي كانت تغطي قدمي أدريانا وفرشها على الرمل قرب بوللي وقال: «يمكنك أن تنامي في مكاني، وأنا سأنام هنا.» تمددّ بريس على البطانية واضعاً يديه تحت رأسه وأغمض عينيه. وقد بدا مرتاحاً وكأنه مستلقي على أريكة مريحة.

نظرت أدريانا باشمئزاز إلى تلك الحقيبة التي تجلس عليها، ففي داخلها بطانيتان سميكتان، ووسادة. وقد بدت الحقيبة لها كسرير ملكة! وسألته بينما كانت تنزع من قدميها حذاءها الجلدي الرطب: «هل... آسفة لإزعاجك، لكن

www.elromancia.com

هل يمكنك أن تحضر لي حقيبتي؟ أريد أن اسرح شعري قبل أن أنام. إذ أنني إذا لم أفعل هذا الآن، فسيكون ذلك مستحيلاً في الصباح.»

فتح عينيه ونظر إليها نظرة استخفاف بطلبها، لكنّه أحضر لها الحقيبة، وأعطاها دون أي تعليق. أخذت أدريانا الفرشاة وبدأت بتسريح شعرها وهي تنظر إلى بريس مفكرة فيما قد يقوله إذا ما رأى ما تفعله عادة قبل النوم. فهي تزيل المكياج بمزيل خاص، ثم تدهن كل جزء من وجهها وجسمها بكريم خاص. وهي تفعل ذلك ليس لأنها مهووسة بشكلها، لكن لأن ذلك مهم لسيدات الأعمال.

توقّفت عن تسريح شعرها، ثم لامست وجهها وجبهتها بأطراف أصابعها، فشعرت بأن جلدها جاف وكذلك شفتاها. فقالت في نفسها، يوم آخر هنا وسيتشقق جلدها.

فقال بريس مفاجئاً إياها: «تبدين بحالة جيدة.»

نظرت أدريانا إلى حيث كان بريس يستلقي وقالت: «شفتاي جافتان للغاية، لا أعلم ما سيحدث لهما بعد خمسة أيام كهذا اليوم!»

فقال مفاجئاً إياها: «لديّ كريم يمكن أن تستخدميه.» ونهض من مكانه ثانية، بحث في اغراضه، ثم عاد وفي يده انبوب صغير أبيض.

فسألته بينما جثا على ركبتيه قربها وفتح الأنبوب ووضع قليلاً من الدواء على أحد اصبعي يده اليمنى قائلة: «ما هذا؟»

«لانولين.»

فقالت وهي تحاول ان تبعد نفسها إلى الوراء عندما بدأ

بدهن الدواء على شفتيها: «أنا... أنا أستطيع فعل ذلك.»

«ستتسخ اصابعك ان فعلت.»

حبست أدريانا أنفاسها بينما كان بريس يدهن شفتيها بحركة دائرية بطيئة، وبدأت في عقلها العدّ إلى عشرة آملة أنها عند الإنتهاء من العدّ، سيكون بريس قد انتهى من عمله.

لكن الثواني العشر انقضت وهو لايزال يقوم بذلك. وعندما أحسّت أنه انتهى، أخذ يدلك برفق شفتها العليا، ثم السفلى، وبعد ذلك الزوايا، ومن ثم اطراف فمها لدرجة أنها شعرت وكأن شفتيها قد تورّمتا من ضغط الدم.

فقالت بصوتٍ خافت: «ألم تنته بعد؟ ثم نظرت إليه بعينيها المثقلتين.

وكذلك كانت نظرته إليها بعينين مثقلتين، عندئذٍ أدركت أنه كان يطيل فعل ذلك عمداً.

«أعتقد أن ذلك يكفي.»

«نظر إلى شفتيها ثم إلى عينيها وقال بنبرة حاسمة: «لا. لا، يا أدريانا... ليس كافياً بعد...»

ومهما كان قدر الرغبة التي تكبتها، فإن خوفها كان أكبر أمام التصميم الشديد. هذا الخوف الذي تسلّل إلى اعماقها، منذراً إياها بأنها إذا تركته يطارحها الغرام فإنه سيحصل على أكثر من جسدها.

عندئذٍ قالت: «بريس، لا...»

تجاهل اعتراضها، وظل يحرك اصبعه حول فمها ببطء أكثر المرة الماضية، وبطريقة مغرية وعيناه تتبعان اصبعه في حركته وعقلها يحارب بيأس اغواء حركته حتى لا تفتح شفتيها.

فأبعدت يده عنها، أرجعت رأسها إلى الوراء وصرخت: «أنا قلتُ لا!»

اعترته الدهشة للحظات لكنها ما لبثت أن اختفت عندما نظر إلى عينيها الكبيرتين وقال بنبرة واثقة: «أنت تريدينني أن افعل ذلك.»

«لا أريد!»

«بلى، أنت تريدين. أنت تريدينني أن افعل ذلك هنا... الآن...»

حدقتْ به لبضع ثوان، مخدرة بقوة صوته الأجش المثير. ثم راحت تهزّ رأسها بعصبية وإضطراب شديدين وصرخت: «هذا ليس صحيحاً!»

لكن يبدو أن رفضها دفعه إلى المبادرة، فأمسكها من كتفيها وأخذ يهزها وفي عينيه نظرات التحدي والثقة قائلاً: «بل صحيح! لماذا لا تعترفين بذلك، تباً لك؟ إنها هناك... بيننا... طوال اليوم. الأمر الذي أدى بنا إلى ما نحن عليه الآن. إنها الرغبة... أدريانا الرغبة.. كفيّ عن الضحك على نفسك واعترفي بوجودها.»

أحسّت بحقيقة أكيدة تنفجر في داخلها، لم يستفزها يوماً أي رجل. ولا رجل! ثم صرخت: «حسناً! حسناً! أريد ذلك.»

ابتعدت عنه وانتصبت واقفة، وفتحت ذراعيها في الهواء ثائرة وقالت: «أيجعلك ذلك سعيداً؟ أيرضي غرورك أن تعرف أنك اثرتني بطريقة منافية للعقل والحشمة؟»

نظرت إليه بعينين يملأهما الألم وقالت: «لأنني لا أريدك، يا بريس ماكلين. حتى لو لم أعترف بذلك لشخص

آخر، أنت لا تناسبني، حتى ولو لليلة واحدة! فأنتم رعاة البقر ليس لديكم احترام فعلي للنساء. آه، طبعاً، أنتم تحبونهن بين وقت وآخر، لكن هنا ينتهي الأمر، ثم تعودون إلى حيواناتكم واصحابكم وشرب الخمر في الحانات. صدّقني، لقد صادفت الكثير من امثالك. لذلك تلبية رغبتي فيك ستكون مستحيلة. ولا أنوي أن اجعلك تستغل ضعفي لارضاء رغباتك. الرجال امثالك يعرفون الحب تماماً كما يعرف دامبو معنى كلمة «هوو!» على الأقل آلان يعرف كيف يعامل إمرأة. آه، أجل، إهزأ مني كما تريد، لكنه يعجبني جداً ولا انوي أن اكون غير مخلصة له.»

راح ينظر إليها، والغضب يملؤه، ثم انتصب واقفاً، وتوجه نحوها كملاك ثائر، وهي تبتعد عنه، لكنه أخذ يتبعها، ثم أمسك بها من يديها وراح يهزّها وينظر في عينيها الرماديتين ويقول: «هراء! أنت لا تحبين كارستيرز... لا يمكن لأي امرأة ان تحب ذلك الرجل... الكمبيوتر على الأقل، ليس امرأة بشخصتيك. فأنت ذكية، عندك كبرياء، رشيقة. أدريانا لا يمكن أن تعطي قلبك، وروحك، لرجل مثله!»

تجهّم وجهه وتابع قائلاً: «أنا لم اقل أنه لم يعرف كيف يعاملك. فعلى الأرجح أنه برمج ليقوم بالخطوات الصحيحة في اللحظة التي بلغ فيها سن البلوغ. لكن يا أدريانا...»

ضمها إليه بقوة لدرجة جعلت تنفسها امراً صعباً. وقال: «إن قبلتِ، ستعرفين الفرق. قولي كل ما يحلو لك عني، لكني... رجل، ولست شخصاً متنكراً يهتم بنفسه أكثر من

www.elromancia.com

اهتمامه بالامرأة التي برفقته. عندما تكونين معي، أيتها المرأة الثائرة، ستعرفين الفرق، أؤكد لك!»

أحسّت أدريانا بشعور غريب في داخلها بينما كان يشدّها إليه اكثر. حاولت ان تحارب الرغبة التي اجتاحتها، وعقلها بالكاد يستطيع تصديق ما يحدث لها. إنه كابوس. لكن ليس الكابوس الذي ظنتّ أن هذه الرحلة ستجلبه، فهذا الرجل يجعلها تنسى كل شيء قالته. قرارات حياتها... رأيها به... آلان... كل شيء!

كل ما أرادته هو أن تخوض غمار هذه التجربة بعد تلك الرغبة التي اجتاحت كل جزء من مشاعرها... وفي غمار احساسها بتلك الرغبة، مرت في رأسها صور لنتيجة تلك العلاقة: امرأة تجلس في المطبخ ورأسها بين يديها، تبكي وتقول انها حامل... مرة ثانية... تشكو همها للشخص الوحيد الذي لديه الاستعداد لأن يسمعها. وابنتها البالغة من العمر عشر سنوات، تعيسة، تسأل لماذا لا تتوقف والدتها عن انجاب اطفال من رجل لا يهتم لها أو لأولادها، لا يساعدهم، لا يحبهم، ولا يزعج نفسه بالرجوع إلى المنزل معظم الأيام.

اعترى ادريانا خوف شديد من جرّاء تلك الصور، الأمر الذي جعلها توقف تلك الرغبة بسرعة البرق. فدفعت بريس إلى الوراء بطريقة آلمته.

لكن عندما نظر إليها وعيناه مليئتان بالألم، أحست أدريانا بتأنيب ضمير اجتاحها وقالت: «آه، بريس!» ثم توجّهت نحوه تحاول مساعدته.

غير أنه رفض مساعدتها وفي عينيه نظرة غاضبة.

أيقظ بوللي ما حدث، فتوجه نحو صاحبه وراح ينبح.

نظر بريس إليه وهو عاقد الحاجبين، إنحنى نحوه وربت عليه قائلاً: «سأكون بخير بعد قليل، لا تقلق.»

انهمرت الدموع من عيني ادريانا وقالت: «آه، بريس، أنا آسفة جداً.»

«وأنا كذلك.»

«لم أعرف.»

«تباً لك!»

«أرجوك سامحني.»

«غير ممكن!»

لم تكن ادريانا معتادة على رفض اعتذارها، فنظرت إليه وقالت: «آه...»

أخيراً استطاع ان ينتصب واقفاً، وقال: «لا تقفي أمامي هكذا. أنا احترم نفسي، وبناءً على ذلك لن اقترب منك ثانية.»

«آه، بريس، أنا... أنا.»

«ويحك، ألا تعرفين كيف تصمتين، يا امرأة؟ اذهبي إلى النوم!»

توجهت إلى مكان نومها واستلقت منهارة، وشيء ما في داخلها يخبرها أنها فعلت الصواب، الشيء الوحيد. لكن...

استرقت أدريانا النظر إلى بريس، الذي كان لا يزال يحدق بها وعلامات الدهشة الشديدة بادية على وجهه.

فسألت باضطراب: «ماذا... ماذا في الأمر؟»

لم يجب بريس عن سؤالها، لكنه هز كتفيه وأدار ظهره إليها، تاركاً لديها الانطباع أنه يمكنه استدارة ظهره بأكثر من طريقة.

لا شك أنه الآن نادم على القيام بذلك العمل النبيل، أي انقاذها. على الأرجح أنه يتمنى لو أنه لم يرها ابداً، لو تركها تحت رحمة الصحراء بما فيها.

أخذت أدريانا تتقلب في فراشها. لكنها أخيراً استطاعت النوم رغم اضطرابها، هذا النوم الذي سيساعدها على النسيان. وربما كان الأمر كذلك، فلو كانت أدريانا تستطيع أن تتنبأ بما يخبئه لها الغد، لما استطاعت النوم أبداً.

الفصل الخامس

استيقظت أدريانا بهلع على صوت سرب من الطيور حطّ على أشجار الصمغ الزهرية اللون المحيطة بالنهر حيث أقام بريس مخيّمه. فركت أدريانا عينيها من شدة نور الشمس قبل أن تنظر إلى ذلك السرب.

فإذا بها ترى مجموعة من الببغاوات السوداء ذات الذيل البرتقالي اللون تقفز من غصن إلى آخر وهي تزعق. فغطّت أدريانا أذنيها بيديها ولكنها كانت لا تزال تنظر إليها مبهورة بجمالها. إن شكلها رائع وجمالها بديع وهي تتنقل من مكانٍ إلى آخر.

لكن يا للضجة التي أحدثتها! استلقت أدريانا على أحد جانبيها، وأغلقت عينيها من شدة النور، وفي تلك اللحظة عاد إلى ذاكرتها ما حدث الليلة الماضية.

فقالت في نفسها عجباً! وشدت على عينيها أكثر لتنسى ما حصل.

ولحسن الحظ أنها كانت تنام على جنبها المعاكس لجنب بريس، فهي لا تستطيع مواجهته. وحقيقة أنه لا زال هناك خمسة أيام على هذه العزلة، أخافتها.

ليس لأنها لا تستطيع الوثوق به، فهو لو أراد إيذاءها، لكن فعل ذلك الليلة الماضية عندما كان غاضباً. لكنه لم يفعل. بل على العكس أظهر رباطة جأش وتماسكاً ظاهرين. ولو كان أحد غيره لكان أذاها بقوة.

www.elromancia.com

لكنها لم تكن تثق بنفسها، أو على الأقل الجزء الداخلي منها الذي كان لا يقاوم بريس. فهي ما زالت لا تستطيع تصديق قوة انجذابها نحوه. رغم أنها تشك في أن يحاول على الأقل مداعبتها كما كان يفعل أحياناً، أو ان يبتسم لها ويمازحها طوال الوقت.

وهي تظنّ ان فعله ذاك لها سيمنحها شيئاً من الراحة. بالإضافة إلى انه لا يمكن لأي شخص ألا يُسحر بتلك العينين الجذابتين اللتين تلمعان عندما يرسم تلك الابتسامة الساحرة على وجهه. نعم... إذا حافظ على حدود معينة في علاقتهما، وعاملها بحذر، ربما تستطيع أن تحتمل هذا الكابوس. ربما...

ولعل أكثر ما كان يزعجها هو أنها لو لم تكن تحتفظ في ذاكرتها ببؤس أمها، لكانت تركت بريس بفعل ما يريد. ولو تركته يفعل ذلك، لكان الآن جرّدها من كبريائها واحترامها لذاتها، مثلما فعل والدها مع والدتها. فما فعله ذلك الرجل لتلك المرأة اللطيفة أمر مزعج لا يُحتمل التفكير فيه!

فقالت أدريانا مؤكدة لنفسها، ان حياة والدتها الآن أفضل بكثير. فالمبلغ الذي ترسله أدريانا لها شهرياً ساعدها على استئجار شقة وترك لها الكثير لحاجاتها الأخرى. ومن المؤكد أنها تعطي قليلاً من تلك النقود لأبنائها الجاحدين، الأمر الذي لم تستطع أدريانا شيئاً حياله. لكن لو كان الأمر منوطاً بها، لما كانت أعطت أيا من أخواتها ولو حتى فلساً واحداً! فهم كسالى وأنانيون كما كان والدهم.

أطلقت أدريانا تنهيدة طويلة، فهي لم تكن تريد التفكير في عائلتها، لم تكن تريد التفكير بتلك السنين التي كانت

أدريانا خلالها مضطرة وبعد العودة من مدرستها للقيام بأعمال كان من المفروض أن تقوم بها الأم... ذلك لأن على والدتها أن تعمل خارج المنزل كعاملة تنظيف ولساعات طويلة من النهار حتى تؤمن الطعام والملبس لأفراد عائلتها. وقد كان لأدريانا شقيقان أكبر منها وخمسة أصغر منها.

فأدريانا ترى أنه كان على كل أخوتها المساعدة ـ دون ذكر والدها العاطل عن العمل بالوراثة ـ لكن بما أنها فتاة، ووالدها كان أكثر الناس استبداداً، فقد كان عليها وحدها القيام بأعمال المنزل كلها والطهو والاهتمام بأخوتها الصغار.

وقد كانت فترة مراهقة أدريانا جولة لا تنتهي من رعاية الأطفال. حتى أنها شعرت للحظات أنها تريد القضاء عليهم ـ حرفياً ـ فقد كانت تكرههم جداً غير أنها الآن حين تذكرهم تشعر بالذنب. يبدو أنها لم تكن نموذجاً للأم المضحّية.

رغم أنه ليس من العدل أن تدين نفسها بهذه القسوة بعد كل ما عانته، لكن على أي حال، ما أن تجول في خاطر أدريانا فكرة زوج يطلب منها البقاء في البيت وإنجاب الأطفال حتى تغمرها القشعريرة.

أدى تفكير ادريانا بذلك إلى التفكير في بريس، وفي العمل المجنون الذي كان سيحصل أمس.

عاتبت نفسها قائلة ماذا عن آلان؟ أليس لديك أي وفاء له؟

يبدو أن وفاءها له ليس كبيراً إلى حدٍ يجعلها تكبح هذه الرغبة، ولعل ذلك ما كان يزعجها. فهي إنسانة وفيّة

وصريحة، وآلان لم يكن ذلك الوغد الذي تكلم عنه بريس الليلة الماضية.

ربما يكون إنساناً طموحاً ويحب العمل كثيراً... لكنه إنسان جيد. ولقد وفّر بعض الوقت للقيام بأمور أخرى غير العمل.

وقد كانا لا يزالان في بداية علاقتهما، على سبيل المثال، عندما عرفت أنه كان وصيّاً على ابنة صديقيه اللذين توفيا غرقاً قبل ثلاث سنوات. لقد رأت أدريانا صورتها في محفظته وسألته عنها.

يبدو أن تلك الفتاة تبلغ الخامسة عشرة من عمرها وتمكث في مدرسة داخلية. وعندما حصل الحادث، عرف بريس أنه الوصيّ عليها حسب وصيّة والديها. كانت تدعى ايبوني تيروكس. وقد زارها آلان بضع مرات في مدرستها ليقوم بما كان والداها يقومان به. كذلك فقد حضرت الفتاة إلى منزله أيام الإجازة، حيث أقامت مع والدته الأرملة لتقيم هناك نهائياً بعد ان تركت المدرسة في نهاية العام.

وقد أدّى التفكير ببَيت آلان إلى تذكر أمر آخر. فتساءلت أين يمكن أن تسكن هي وآلان بعد زواجهما؟ بالطبع ليس مع والدته وتلك الفتاة...

ظهرت عبسة غريبة على وجهها بينما كانت مستلقية شاردة الذهن، فقد شعرت بهدوء المكان. ألقت نظرة إلى الوراء ثم إلى الأعلى لتكتشف أن سرب الطيور قد غادر تاركاً أغصان الأشجار في حالة سكون دون حراك حتى أنه لم يكن هناك نسيم يهزّ تلك الأوراق الخضراء. لكن ما فاجأها هو أن بريس لم يستيقظ بعد، لم يقم بأية حركة، أو

حزم الأمتعة. وماذا عن بوللي؟ ألم يكن يجب أن تسمع نباحه؟

قلقت لعدم حصولها على إجابة لأي من تلك الأسئلة، فانتصبت واقفة وأخذت تبحث هنا وهناك، وفي كل مكان!

لم يكن بريس في مكان نومه، ولا جمل يرعى حول النهر، وبوللي، كصاحبه، لم يكن موجوداً.

أحست أدريانا بصدمة كبيرة وراحت تقول في نفسها لقد ذهب وتركني، تركني أموت...

لكنها سرعان ما عادت إلى وعيها. فقد رأت أن أمتعته ما زالت موجودة ومكوّمة هناك، حتى قبعته. بالطبع كان أخذ قبعته لو كان ينوي المغادرة؟ حاولت أن تبحث عن سبب ما لغيابه، ربما كان يقوم بجولة صباحية!

بدت هذه الفكرة لأدريانا مضحكة، أن يقوم بجولة صباحية مستخدماً الجمل وكأنه حصان. لكنها تمسكت بهذه الفكرة، لأنها لم تستطع إيجاد سبب آخر يخفف من قلقها وتوترها.

مضت الدقائق بطيئة وهي تنتظر عودة بريس. وبعد نصف ساعة، راحت تشغل نفسها بالتفتيش عن الحطب وإضرام النار من جديد، ثم صنعت لنفسها قليلاً من الشاي.

ولما ضاقت ذرعاً من الانتظار، أخذت تمشي وتمشي حتى اجتازت تلك المنطقة الخضراء وبدأت تمشي في منطقة رملية وهي تحجب أشعة الشمس عن عينيها بكلتا يديها، آملة أن يظهر بريس.

لكنه لم يظهر.

وبعد حوالي ساعة من الانتظار المرير، عادت وجلست

www.elromancia.com

قرب النار وأجهشت بالبكاء. وبينما هي تبكي سمعت أجمل صوت، صوت الجرس المعلّق في رقبة جامبو.

وقد كانت فرحتها كبيرة جداً، حتى أن دموعها قد جفّت بسرعة. أحست بقوة في داخلها، ثم قامت وأخذت تجري في اتجاه الصوت وشعرها يتطاير خلفها، وابتسامة فرح تملأ وجهها.

استطاعت أدريانا رؤيته بعد أن اجتازت نصف المسافة في اتجاه التلال الرملية، بريس يسير على قدميه وهو يجر الجملين، وإلى جانبه بوللي ولسانه يتدلى من فمه. لو كانت أدريانا تتحرك نحوه ببطء لكانت لاحظت أن بريس كان تعباً، وغاضباً، ومتّسخاً. أضف إلى انه لم يكن مهيّأ لاستقبالها بالطريقة التي ركضت بها إليه، وحضنته بقوة، وهي ترتجف من شدة القلق.

«آه، بريس، بريس! لقد كنت قلقة جداً، أنا...»

تجمدت أدريانا عندما رأت تلك النظرة الغاضبة في عينيه... وقبل أن ترد على تلك النظرة، ترك رسن الجملين، ورفع يديه ثم أمسك معصميها وفكّ ذراعيها من حول رقبته، وابتعد عنها قليلاً وكأنها إنسانة ملوّثة وقال: «أتمانعين؟»

شعرت أدريانا الآن بالمرض بطريقة مختلفة، فقد خيل اليها أنها تستطيع احتمال احتقاره لها. لكن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً، فقد أحسّت بغصّة في داخلها جعلتها تريد البكاء ثانية. فهي كانت تتوق لابتسامة منه، حتى إحدى مجاملاته العابرة ستكون أفضل من هذا الاحتقار الذي ظهر في عينيه وفي صوته.

فرمقها بنظرة غاضبة ثانية وقال: «اعتقدت أنك ستتصرفين بحكمة أكثر يا أدريانا، انك لن تحضنيني بهذه الطريقة. وأتمنى ان تلتزمي حدود علاقتنا في المرة المقبلة. بهذه الطريقة ربما يمكنني الخروج من هذا المكان معافى.»

تورّدت وجنتاها من شدة الخجل والغضب، ثم قالت وهي ترفع شعرها عن وجهها بعصبية: «لم أرمِ بنفسي عليك كما تظن، فقط كنت مسرورة لرؤيتك. فلا بد انكَ تعرف مدى قلقي عندما استيقظت ولم أجدك أنت والجملين؟»

فارتفع حاجبا بريس عندما أدرك ما الذي فكرت به وقال: «هل أنا سافل بنظرك كي ألجأ إلى الجريمة؟»

لم تستطع إيجاد إجابة لهكذا سؤال.

«ليس لأنك لا تستحقين القتل.»

للمرة الثانية لم تقل شيئاً.

«لا تودّين الكلام، لا؟ يا له من تغيير!» ثم أمسك رسن الجملين، ومرّ من قربها، متوجهاً نحو المخيّم.

ركضت أدريانا وراءه حتى أدركته وسألته بلهفة: «أين... أين كنت؟»

«كنت أبحث عن هذين الجملين اللعينين، طبعاً! فقد رجعت الجمال الغريبة إلى المخيم ثانية في الليل.»

«لكنك قلت انهما مروضان!»

فردّ بعصبية: «ليسا مروضين إلى هذا الحد. كان لا بد لي أن أربطهما قبل أن أخلد إلى النوم. هذا ما أفعله دائماً.»

«إذاً، لماذا لم تفعل؟» ثم ضحكت في نفسها عندما فهمت السبب.

www.elromancia.com

«كان لديّ أمور أخرى أقوم بها!»

فعضّت أدريانا على شفتها السفلى.

«إضافة إلى انني لم أتوقع أن يبتعدا عن المكان وكل هذا العشب والماء حولهما. لربما تسلّل ذاك الجمل الشرس ليلاً وسحبهما وراءه. لقد كانا يتوجهان نحو تلك المنطقة الجافة عندما عثرت عليهما. ولولا بوللي لما كنت وجدتهما.

«إذاً، شكراً لبوللي.»

«معك حق. فأنا ما كنتُ لأمشي في تلك الطريق دونه.» ثم أكمل بلهجة استخفاف: «بما أننا نتكلم عن المشي، اعتقد يا أدريانا، أفه عليك ان تنتعلي حذاءك إذا أردت لهاتين القدمين الصغيرتين أن تتحملا طول الطريق.»

رغم الاستهزاء في صوته، إلا ان أدريانا اعتبرت هذه الملاحظة مجاملة. فنظرت إلى قدميها، مؤكدة أنّ لديها قدمين قذرتين جذابتين، وأصابع قدمين صغيرة وناعمة، وأظفار مرتبة. غير أن آلان لم يلاحظهما أو يبدي أي تعليق عليهما. فبدت السعادة واضحة عليها، حتى أن بريس لاحظ ذلك إذ انه كان ما يزال يراقبها.

لكن ما لبثت هذه السعادة أن تحولت إلى احتقار للذات، إذ ان كل التوعية النفسية والتأهب النفسي لم يمكّناها من السيطرة على عواطفها تجاه هذا الرجل. حتى رغم تجاهله لها، فهي لا تزال تبحث عن أمور صغيرة تثبتُ لها أنه لا زال يريدها. لأن الحقيقة هي أنها تريده أن يرغب فيها، لدرجة قد تنسيه ما حصل الليلة الماضية.

جعلت الاحتمالات التي جالت في خاطرها ريقها يجف وقلبها ينبض بسرعة كبيرة.

فرمقته بنظرة سريعة ملاحظة ملامح الغضب الواضحة على وجهه. وأخذت تقول في نفسها انه لربما عليها أن تشكر خصومته لها، فيبدو أنها الطريقة المثلى لحماية نفسها من جاذبيته، فهي لا تستطيع الاعتماد على ضبط نفسها!

وصلا إلى المخيّم، فاقتاد بريس الجملين إلى النهر كي يشربا تاركاً أدريانا قرب النار. فقررت أن تحضّر له فنجاناً من الشاي سواء أرادها أن تفعل ذلك أم لا، ثم حملت فنجان الشاي وتوجهت نحو بريس الذي ذُهل من إصرارها على أن يأخذه، وقد ظهر في عينيه وميض السعادة الذي ما لبث ان اختفى وهو يقول: «شكراً.» ثم رفع الفنجان وراح يشرب الشاي.

«أنا... أنا أودّ تحضير طعام الفطور لك، لكن لا أعرف أين تضع المؤن. فلو ترشدني...» ثم اختفى صوتها عندما أخذ يئن، لكنها تنهدت وقالت: «أرجوك، بريس... قلتُ لك انني آسفة... ألا يمكننا ان ننسى ما حصل ليلة أمس؟»

فنظر إليها نظرة طويلة قاسية وقال: «أتستطيعين أنتِ نسيان ذلك؟»

فجفلت قائلة: «أودّ المحاولة.»

فأطلق بريس ضحكة استهزاء متعبة.

«إذاً، أنت تكرهني الآن. حسناً ولكننا عالقين في نفس المكان لبعض الوقت ومن الأفضل لو نحاول التعامل مع بعض بطريقة إيجابية، على الأقل ظاهرياً. ألا توافقني الرأي؟»

راح بريس يحدّق بها. آه، لكم تمنت لو انها تستطيع معرفة ما يفكر به!

«حسناً. أنا أوافق.»

ابتسمت أدريانا بسرور، لكن سرعان ما اختفت هذه الابتسامة عندما رأته عابساً بسبب تلك الابتسامة، فالهدنة التي قرّراها لا يجب أن تتخللها أي ابتسامات. ولو انها كانت صادقة مع نفسها لأدركت أن ذلك أفضل.

فقلما تبقي الابتسامة الرجل أو المرأة على برّ الأمان في أية علاقة.

قالت بنبرة مؤكدة: «هناك أمر آخر أودّك أن تعرفه، يا بريس. أنا لست حمقاء. حقاً أنا لستُ كذلك.»

«حسناً.»

راعى بريس الاتفاق. فأرشدها إلى مكان المؤن، التي كانت متنوعة. تناولا الفطور الذي تكوّن من الفواكه المجففة مع الحليب، وشربا مزيداً من الشاي، ثم أكل كل منهما تفاحة. بعد ذلك أوكل إليها بعض الأعمال لتقوم بها كغسل الصحون، وتعبئة الماء في الأواني المخصصة لذلك، وإطفاء النار بالرمل، بينما قام هو بحزم الأمتعة وتقسيمها ما بين دامبو وجامبو.

أبرز ما قام به بريس ولاحظته أدريانا هو امتناعه عن النظر إليها أو لمسها بأي طريقة. فهو لم يحاول أبداً أن يقدّم لها نظارات الشمس أو مضاد البعوض. حتى إذا ما حدث واصطدما ببعضهما، فإنه يبتعد بسرعة. وقد شعرت أدريانا أنه يبالغ في تصرفه هذا قليلاً، وقد عبّرت له عن

ذلك، الأمر الذي جعله يرسم ابتسامة واهية ويقول: «اعتقد ان ذلك أفضل من الاعتذار.»

لكنه بعد هذا الموقف أصبح أقل تشنجاً في تصرفاته، فقد لمس قدمها بينما كان يساعدها على امتطاء الجمل. لم تستطع أدريانا أن تفسّر تصرفه هذا، فهي لم تصدق أنه يخشى إهانتها له، الأمر الذي جعلها تظن أن هذا التصرف مزعج ومغيظ في الوقت نفسه. ربما هو يكرهها، لكنه ربما ما زال يرغب فيها.

وبعد ساعتين من اتفاقهما، استأنفا رحلتهما. وعند الظهر، كانا قد اجتازا بضعة أميال، متبعين خطاً مستقيماً هو خط مجرى نهر جاف، قال بريس ان له عدة فروع. لقد كان محقاً، لأنهما ارتاحا قرب أحد فروعه لتناول طعام الغداء، لكنهما لم يريا في هذا اليوم أكبر وأجمل من البحيرة الواقعة قرب مخيم بريس. رغم ذلك، فقد كان طريقاً مريحاً للسفر أكثر من طريق الصحراء والتلال، إذ ان ظلّ أشجار الصمغ على امتداد طريق النهر يخفف من حرارة الشمس الحارقة. كذلك فإن البعوض لم يعد يزعجها في الحقيقة، وفي فترة بعد الظهر، ورغم كونها متعبة، إلا انها كانت مرتاحة جداً.

وراحت تفكّر في نفسها قائلة ان بريس كان محقاً بشأن ما قاله عن الصحراء، فهي وبطريقة ما تفرغ عقل الإنسان وكأنه يطير.

إذ ان أدريانا شعرت أكثر من مرة أن ساعة قد مرّت، لتكتشف لاحقاً أن ما مرّ ليس أكثر من بضع دقائق. تأثير هذا الأمر بالإضافة إلى تأثير حرارة الشمس المرتفعة

يؤديان بالإنسان إلى الولوج في غيبوبة مهدئة. فقد تعلمت كيف تسيطر على الجمل أثناء سيره وتحمي نفسها من الوقوع دون خوف أو قلق.

وبينما كانا في طريقهما خلال فترة بعد الظهر، شعرت بنعاس شديد، فسألته: «أنت لا تنام على ظهر الجمل، أليس كذلك؟»

ثم فتحت عينيها بصعوبة لترى ما إذا كان بريس إلى جانبها، فلاحظت أن جامبو توقف عن السير.

ففركت عينيها وقالت بنبرة تظهر الدهشة: «أتدري؟ أعتقد انني كنت نائمة.»

ضحك بريس.

أحست أدريانا بدفء يملأ قلبها لأنها سمعته يضحك ثانية، فابتسمت له.

لكنه سرعان ما توقف عن الضحك وأعلن فجأة: «سنقضي الليلة هنا، وبحيرة الماء هذه تكفي حاجتنا.»

فنظرت إلى بحيرة الماء الصغيرة الموحلة، محاولة ألا تجعل عودته إلى عصبيته تزعجها، وقالت: «آه...»

«حسناً؟ هل ستبقين حيث أنت تحلمين طوال النهار؟ فقد قلت لي انك تريدين المساعدة!»

«آه، أجل... أجل...» ونظرت إليه نظرة مربكة، لكن بريس حول نظره عنها إلى مكان آخر.

انقضى الليل تدريجياً، لكن ليس كما تريد أدريانا. فكل ما فعله بريس كان توجيه التعليمات لأدريانا، وتوبيخ بوللي الذي كان يزعج الجملين. وبعد توبيخ قاس، توجه بوللي إلى حيث تجلس أدريانا وجلس بقربها الأمر الذي لم

يفعله أبداً من قبل. لكن في اللحظة التي مدّت أدريانا يدها لتربّت عليه، حاول عضّها.

فقالت في نفسها، كما الكلب كما صاحبه.

لم تكن الأرض طرية كالأرض الرملية التي كانت قرب مخيم بريس، وعندما قالت ملاحظتها هذه لبريس، رمقها بنظرة استهزاء.

ثم صرخ بها قائلاً: «هل يجب ان تتذمري طوال الوقت؟ تعلمين أنك لست في فندق الريتز.»

فردت مدافعة: «لكنني لا أتذمّر طوال الوقت. أنا... آه، تباً، يا بريس ماكلين! ألأنك مضطرب المزاج تظن أنه عليّ أن أتحملك. أنا لست كلباً. اتعلم ذلك؟»

فقال بعصبية مماثلة: «لا، أنت فاجرة حمقاء!»

خيّم عليهما الصمت، فترك بريس المكان وراح يتجول في الظلام.

لم يجرح أحد شعور أدريانا بهذه القسوة من قبل.

ألقت أدريانا بنفسها على فراشها، أخفت وجهها وأجهشت بالبكاء.

وكأي امرأة، فقد كان هناك شيء ما في داخلها يخبرها أنه سيسمع بكاءها ويعود ليهدىء من روعها. لكنه لم يرجع، تاركاً إياها للبؤس والدهشة. فهي تجد ذلك مربكاً، إذ انه كلما أساء معاملتها، تمسكت هي به أكثر. لقد كان ذلك جنوناً لأنه كان ضد كل ما اعتبرته منطقياً وطبيعياً. ألا يجب ان يجتذب اللطف والاحترام المرأة، وليس العنف وعدم مراعاة أحاسيسها؟

مرّ وقت طويل جداً قبل أن تستطيع النوم. لقد كان طويلاً

لدرجة أنها قررت خلاله أنها حمقاء وأن بريس شخص بلا قيمة، وأنها لن تكلمه ثانية ما دامت على قيد الحياة!

لكن بقي هذا القرار ساري المفعول حتى الصباح. فرغم كل شيء، كان من الصعب عدم التكلم مع الرجل بعد ما أنقذ حياتها.

الفصل السادس

كانت أدريانا مستلقية على ظهرها عندما استفاقت في صباح اليوم التالي قبل بزوغ ضوء النهار، وأحست بوزن ثقيل على البطانية التي كانت تغطيها، وأول ما خطر لها احتمال أن يكون بوللي.

لكنها لم تتجرأ على رفع رأسها والنظر بسبب الخوف الذي اعتراها. وسبب هذا الخوف مردّه إلى انها لم تكن مستيقظة تماماً بعد، هذا بالإضافة إلى ان ذلك الوزن لم يكن بثقل وزن كلب...

في هذه الحالة، ما عساه يكون؟

حاولت ان تستجمع قواها وتحاول النظر، وما ان رفعت رأسها ببطء حتى بدأ قلبها يخفق بقوة.

ثم سمعت صوت بريس الأجش يقول لها بهمس: «لا تتحركي.»

أحست أدريانا بذعر شديد، لكنها أرجعت رأسها إلى الوراء ببطء. وسألت بصوت خافت دون ان تتجرأ على الالتفات لتنظر إلى حيث كان بريس: «ما هذا؟»

فأعاد بنبرة مؤكدة: «فقط... لا... تتحركي.»

«آه، ماذا هناك؟...»

بالطبع، هناك احتمال واحد: أفعى. أفعى كبيرة.

وقد كانت أدريانا تكره الأفاعي، حتى ان صورة الأفعى تثير فيها القشعريرة. وفكرة أن تكون أفعى بقربها ولا

www.elromancia.com

يفصل بينهما سوى بطانية جعلتها تشعر بالمرض، وراح العرق يتصبب على جبهتها.

ثم همست قائلة: «أين أنت؟ ماذا ستفعل؟»

فردّ هامساً: «هل يمكنك أن تصمتي؟»

كان في استطاعة أدريانا أن تراه الآن، فقد اقترب منها، انحنى فوقها ببطء شديد، ثم مد يديه تحت رأسها، مسنداً إليه القسم الأعلى من جسمها وقال لها بهدوء: «بعد ان أعدّ إلى ثلاثة، سأدفعك من مكانك. اتفقنا؟»

فقالت مذعورة: «حسناً.»

«واحد... اثنان... ثلاثة!»

انطلقت أدريانا من مكانها بقوة، ليلتصق جسمها بجسم بريس. لكنه سرعان ما ابتعد عنها، حمل بندقيته وأطلق النار. فقالت أدريانا في نفسها مذهولة مهما يكن على البطانية الآن فانه سيلوم نفسه لاختيار هذا المكان لينام فيه.

ثم عاد بريس وأخذها بين ذراعيه وهي لا تزال ترتجف. وسألته: «ما... ما كان نوع هذه الأفعى؟»

فأبعدها عنه قليلاً وسألها بابتسامة باردة: «وكيف عرفت أنها كانت أفعى، يا آنستي الذكية؟»

«أنت... أنت لست الوحيد الذي يستطيع إعطاء خلاصة منطقية يا بريس... لماذا أنا أرتعش إلى هذا الحد؟»

«أنت مصدومة. لكنك ستكونين بخير بعد قليل. أتريدين أن تنظري إلى الجثة؟»

شعرت برعشة تغمرها بينما كانت تنظر بتردد إلى تلك الأفعى الكبيرة المهشمة.

ثم تابع حديثه قائلاً: «لا بد أن بوللي يطارد كالعادة أرنباً. لأنه لو كان هنا، لكان هجم على هذه الأفعى بالتأكيد، ومن يعلم ما كان سيحدث عندئذٍ. هذه الأفعى هي من فصيلة الأفاعي الخطرة.»

أحست أدريانا بارتخاء وجثت على ركبتيها، لكن بريس ساعدها على الوقوف ثانية وقال: «أعتقد ان ما تحتاجينه الآن هو كأس من الشراب.» ثم توجّها نحو جذع شجرة وتركها هناك، ثم ذهب لاحضار الشراب.

ولدى عودته، فتح زجاجة الشراب، وقدمها إليها قائلاً: «اشربي جرعة كبيرة. وسأخاطر بالشرب بعدك من نفس الزجاجة.»

فعلت أدريانا كما قيل لها، لكنها سعلت قليلاً لأنها ابتلعت الكثير من الشراب في جرعة واحدة وقالت: «أنت تحضر لي دائماً مشروبات منعشة.»

فأخذ منها الزجاجة وغطاها ثم قال: «أنت دائماً في حاجة إليها.»

فردّت بابتسامة ثم قالت: «هذا صحيح... لكنني لا أستطيع السيطرة على نفسي إذا لم يكن لجسمي المناعة الكافية لذلك كما هو الحال مع جسمك.»

تجهم وجهه لدى سماعه هذا الكلام، وتساءلت أدريانا ما الخطأ الذي اقترفته أو قالته الآن. فالأمر الذي لم تدركه أدريانا هو أنها عندما ابتسمت له، كانت عيناها كذلك تدعوانه إلى ما تدعو إمرأة رجلاً إليه. لم يكن فعلها ذلك متعمداً، لكنها كانت ترغب في ذلك.

قال لها بلهجة باردة وغامضة: «ليس لجسمي المناعة

ضد أي شيء، الأمر الذي أنا متأكد من أنك تعرفينه... إنه ضعيف وسريع التأثر كجسم أي رجل.»

لم تستطع أدريانا أن تخفي دهشتها لتحوّل بريس هذا، الذي هزّ رأسه وقال بعصبية: «أتمنى أن تقرري ما تريدينه مني.»

فسألته مستغربة هذا التحوّل في مزاجه وفي موقفه: «ما أريده منك؟»

وسرعان ما خيم التوتر عليهما بعد ذلك.

«اسمعي، لن ألف وأدور حول الموضوع بعد الآن، لن استخدم تلك الأساليب المعقدة التي تستخدمونها أنتم أهل المدن. أنا أقول وأفعل ما أريد ولا أبالي بشيء! أنا أريدك، يا أدريانا. لطالما أردتك منذ اللحظة الأولى التي وقع فيها نظري عليك وأنت تركضين نحوي.»

فتساءلت أدريانا في نفسها، أرادها منذ اللحظة الأولى؟ لكنه لم يلمّح لها بأي شيء. لم يلمّح بأي شيء إطلاقاً! لم يفعل ذلك إلى أن كانا في البحيرة...

ثم استأنف حديثه قائلاً: «لقد اعتقدت أنه لم يكن الوقت أو المكان مناسباً لكي أصارحك بذلك فوراً. لتقومي بعدها باخباري بأنك مخطوبة. فقلت في نفسي اللعنة على ذلك. لن أتمكن من التقرب إليها... لكن حسناً، لا تبالي، فهو لا شيء سوى انجذاب، مثل ألم في الرأس. لذلك قم بالسباحة كل ليلة. لكن الموقف تغير وأصبحت أنت أيضاً تريدينني. لقد رأيت ذلك في عينيك عند البحيرة... لأكتشف بعد ذلك أن خطيبك إنسان لا يساوي شيئاً! ووجدت أنه ليس هناك من سبب يمنعني من ملاحقتك، لم أجد سبباً يمنعني من فعل ما

لم تتوقف عيناك عن طلبه مني. وعندما حانت الفرصة - كريم الشفاه - بدأت محاولتي لكن تلك المحاولة انتهت بنتيجة عكسية ومؤلمة نوعاً ما.»

«بريس، أنا...»

«اصمتي وانتظري حتى أنهي حديثي.»

فلم تتفوه أدريانا بكلمة واحدة بعد ذلك.

فتابع كلامه قائلاً: «أعلم انك اعتذرتِ لي. لكن ذلك لا يغفر لك تحوّلك المفاجيء ليلة أمس وإيذائي مدى الحياة! ولا تعتقدي انني لا أعرف السبب الذي جعلك تقومين بذلك، لأنني أعرفه... سيدتي، أنا لا أسامح من يقوم بمثل هذا العمل، أبداً.»

ثم نظر إليها نظرة استخفاف مما زاد من ارتباكها. وراحت تتساءل في نفسها كيف يمكن له أن يعرف خلفيّة تصرفها هذا، أن يعرف عن ظهور صورة والدتها أمام عينيها؟

«لا تحاولي إظهار تلك النظرة البريئة المندهشة في عينيك الرماديتين الجميلتين، يا أدريانا... فشخصيتك تماماً كشخصية رجل السياسة! فكلانا يعلم لماذا فعلت ذلك أمس. فأنت لم تتنازلي وتسمحي لرجل مثلي أن يلمسك، أليس كذلك؟ إذ أنك لا تظنين انني شخص مناسب لكِ... الأمر الذي يجعلني مهما قلت أو فعلت، لا أنوي أن ألمسك بعد الآن.»

ثم نظر إليها نظرة ساخرة وتابع قائلاً: «لقد حكمتِ عليّ قبل حتى أن تعرفيني. قررت أنني لا أصلح لكِ وأنهيتِ الأمر! لكن لا بأس بذلك، فأنا أرد على ذلك بالمثل، فقد

وضعتك في خانة المتساهلات المأجورات المتعجرفات اللواتي يردن الحصول على المال وكل ما يُرضي تعجرفهنّ، يردن التعرف إلى مليونير لطيف يكفيهن مادياً ويمنحهن مكانة اجتماعية، هذا بالإضافة إلى إرضاء رغباتهنّ الحسية. ما رأيك بهذا الكلام؟ هل ما قلته قريب من حقيقة شخصيتك؟ ورغم كل شيء، فقد تغلّبت على مخاوفك من أن تتورطي؟ ولهذا السبب أصبحت لطيفة معي فجأة، أليس كذلك؟»

رمى بريس ملاحظته الأخيرة بسخرية واضحة، وفي عينيه نظرة استفزاز تطلب الرد. وقد ردّت أدريانا فعلاً ولكن بطريقة لا تثير انتباهه. فنصف ما قاله كان حقيقة وقد أثار فيها ذلك شعوراً بالذنب والخزي، لكن اتهامه الأخير لها كان خاطئاً وقاسياً لدرجة أنها رفضت الاعتراف له بأي شيء.

فرفعت أدريانا كتفيها ومن ثم ذقنها، وعيناها مضطربتان كعينيه، وقالت: «أظن أنك أكثر دقة في إطلاق النار من معرفتك بشخصيتي ودوافعي. وكما قلت لك في السابق، يا بريس، لقد كنت منجذبة إليك قليلاً ـ قليلاً جداً ـ وأرجوك تناسَ ما قلته لك بعد حادث الإصطدام لأنه كان مجرد تعبير عن امتناني لإنقاذك لي. لكنني استطعت أن أسيطر على ذلك سريعاً. وأنا أعتقد أنك إذا كنت تفكر أن ما من امرأة تستطيع مقاومة جاذبيتك فأنت مخطيء. إذ انك، عندها، ربما تكون تحكم على الأشخاص من خلال حاجاتك الشخصية، التي يبدو أنك لا تستطيع السيطرة عليها. فلقد اعترفت الآن انك رغبت في امرأة تكرهها. وأنا أجد ذلك

متناقضاً. فأنا أكيدة من انني لا يمكن ان أرغب في شخص كرهته.»

ثم هزت كتفيها بحركة أظهرت لا مبالاة فعلية، وبعد تلك الحركة تابعت كلامها قائلة: «على كل حال، يسعدني انك ستلعب دور الرجل النبيل حتى انتهاء رحلتنا، رغم انني أقترح عليك، ومن أجل الاحتياط فقط، أن تتابع السباحة كل ليلة!»

أصيب بريس بصدمة نتيجة حديثها، فقد كان ذلك واضحاً على ملامحه. أم أن ما صدمه هو شخصيتها... ثقتها بنفسها، تماسكها، طريقة كلامها؟ لكنه لم يكن يعلم أنها كانت تنوح في داخلها آسفة على حياتها المستقبلية التي انهارت أمام عينيها. إذ كيف يمكن لها أن تتزوج الآن الآن؟ كيف يمكن ان تعانقه... وهي تتمنى لو يكون شخصاً آخر...

فصرخ بريس قائلاً: «تباً لك. أنت أفظع مما كنتُ أتصوّر!»

«تصور كيفما تشاء. فالحقيقة أن كل هذا سيكون غير مجدٍ بعد عدة أيام. فنحن لن نرى بعضنا ثانية. إذاً، لنحاول أن نكون أكثر تمدّناً، هلا فعلت؟ أم ان ذلك صعب بالنسبة إلى رجل بدويّ مثلك؟»

وقد كانت أدريانا على يقين أنه ما كان عليها استخدام تلك اللهجة الاستفزازية. لكن لم يكن لها التراجع. فكل ما يفكر فيه هو أنه لن يقبل اعتذارها أبداً.

ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجه بريس، مما أثار الخوف في داخل أدريانا.

ثم قال لها: «ستفاجئين عندما ترين إلى أي حد يمكنني أن أكون متمدّناً، يا أدريانا.»

راحت أدريانا تفكر في ما يعنيه وقالت في نفسها انه إذا تجرّأ ولمسها فإنها ستبلغ عنه السلطات بتهمة الاعتداء عليها!

ثم قالت محاولة أن تظهر صوتها واضحاً: «يسرّني سماع ذلك. الآن، هل يمكننا أن نسوّي الأمور؟ فربما إذا استطعنا ذلك، امكننا الوصول إلى المحطة حيث تعمل في غضون يومين عوضاً عن ثلاثة أيام.»

«المحطة؟»

«أنت تعلم ما أعني... المكان حيث تعمل. دوفر داونز أو مهما كان اسم ذلك المكان.»

«آه أجل، دوفر داونز، المكان حيث أعمل... حسناً، إذا كنت تستطيعين قضاء وقت طويل على ظهر الجمل أظن أنه يمكننا الوصول في غضون يومين، إذا كان هذا حقاً ما تريدين.»

فقالت مؤكدة: «هذا ما أريده.»

«لكِ ما تريدين.»

أحسّت أدريانا بالألم في كل عضوٍ من أعضاء جسمها، حتى ان الجملين أصبحا بالكاد يستطيعان تحريك قوائمهما بسبب طول المسافة التي اجتازاها، رغم انهما كانا لا يزالان قرب مجرى النهر عندما غابت الشمس. وقالت أدريانا بصوتٍ مرتعشٍ من شدة التعب: «بريس، لم أعد أستطيع المتابعة. أنا...»

«لا تستطيعين المتابعة؟ لِمَ لا؟ كان ذلك ما أردته، أليس كذلك؟»

«لأنني... لأنني...» ولم تستطع قول المزيد لأنها وقعت عن ظهر الجمل غائبة عن الوعي.

عندما عادت إلى وعيها، كان الجو بارداً، والظلام قد حل، وهي مستلقية على فراشها المعتاد. كان بريس بعيداً عنها بضعة أمتار يحاول إضرام النار. حاولت أدريانا أن تجلس في مكانها، لكنها ما لبثت ان شعرت بذلك الدوار ثانية لتعود وتستلقي وهي تتأوّه.

فركض بوللي إليها وراح يلعق يدها.

اقترب منها بريس وأعطاها كأساً وهو يقف أمام النار. ثم قال: «هيا، اشربي الماء... عليّ أن أضرم النار جيّداً قبل أن نتجمد من البرد... هل ستكونين بخير إلى حين أعود؟»

«أجل.»

لكنه لم يذهب. بل ظلّ واقفاً وراح يحدق بها ثم قال: «أنت منهارة.»

«أعلم ذلك.»

«لقد كان كل هذا فوق احتمالك.»

«على الأرجح.»

خيّم الصمت لوقت قليل.

«أنا آسف، يا أدريانا.»

«أنا أيضاً آسفة.» وفجأة أجهشت بالبكاء.

«لا تفعلي ذلك. أرجوك لا...»

«لا بأس. ليس عليك ان تقوم بأي شيء. فقط أتركني... إذهب إلى حيث النار...»

تردد بريس لحظة وكأنه لا يدري ما عليه فعله. ثم هزّ كتفيه وذهب ليفعل ما طلبت منه أن يفعله.

لكن أدريانا استغرقت وبسرعة غريبة في سباتٍ عميق، لتستفيق بعد قليل فتجد بريس قد أضرم النار ويقوم بطهو

الطعام، وضوء النار يُظهر جزءاً من وجهه. كذلك فقد لاحظت أنه غيّر ثيابه، فهو يرتدي قميصاً أزرق وجينزاً داكن اللون، وشعره مبلل وكأنه كان يسبح، لكن لم تكن هناك أية بحيرة. لكن أدريانا لم تستطع الرؤية لمسافة بعيدة لأنّ النار كانت تضيء فقط بقعة صغيرة من المكان.

يبدو أن بريس لم يكن منتبهاً لنظرت ادريانا، إذ أنه كان يحدق في النار، لكن نظراته كانت تبينّ بوضوح أنه شارد الذهن.

فتساءلت بماذا يمكن أن يفكر؟ بفتاة ريفية أحبته واحترمته كما هو، فتاة لا يمكن أن تؤذيه جسدياً وعاطفياً كما فعلت هي؟

أدريانا لم تكن تستطيع أن تنكر أن بريس من تسبب في تلك المواجهة القاسية، وقد جُرح بشدّة من تصرّفها الأحمق. حسناً، إذاً ان غضب بريس كان سببه جرح كبريائه كرجل، لكن ذلك لا يجعل تصرفها مبرراً أبداً. فقد كانت تتلاعب بعواطفه، فهي تريده حيناً، وترفضه حيناً آخر، والخزي كان حملاً ثقيلاً في قلبها. فلا يمكن ان تكون هذه هي الطريقة التي تعامل بها رجلاً أنقذ حياتها، ليست مرة واحدة، بل اثنتين!

وبينما كانت تنظر إلى بريس، قرّرت أنها ستفعل كل ما في وسعها كي لا تزعجه طوال الرحلة. فهي لن تكون متمدّنة فقط، بل ستكون مرحة ومهذبة، وتثبتُ له أنها لا تحتقره أبداً، وأنها تقدّر كل ما فعله لها.

وقد زاد إحساسها بالذنب عندما تذكرت أنها لم تسأله ولا مرة واحدة عن نفسه وحياته، وأنها حقاً تسرّعت في

الحكم عليه. أو حتى وافقته على أحد الأمور. عبست أدريانا حين تذكرت تلك الدهشة التي ظهرت في عينيها عندما أثبت لها أنه حقاً رجل ذكي. ليس ذكياً فقط بل أيضاً وسيم، قوي، لطيف، و...

ثم أحست أدريانا بصوتٍ في داخلها يقول لها كفّي عن ذلك! فأنتِ تجعلينه يبدو فاضلاً. لكنه ليس إنساناً صالحاً إلى هذا الحد! لماذا، لأنه قام بعمل دلّ على شخصيته، لا؟ فهو لم يكن يستطيع القيام بعمل أفظع من هذا لو كان حاول ذلك، عندما أطلق عليك اسم حبيبة مزدوجة.

آه، أجل، لكن... كان هناك أكثر من حقيقة واحدة صحيحة في اتهامه، أليس كذلك؟ فأنتِ لم تفكّري في الآن مؤخراً، هل هذا صحيح؟

«آه، كفى.» ثم اتكأت على احد ذراعيها عازمة على التصرف بتهذيب، وقالت بصوت منخفض: «بريس. أنا... أنا استيقظت.»

«أستطيع أن أرى هذا.»

تنهدت أدريانا تنهيدة أظهرت شيئاً من الندم وقالت: «دعنا لا نكون قاسيين مع بعضنا البعض بعد الآن، يا بريس، أنا آسفة لما قلته. آسفة على كل شيء...»

فقال وابتسامة باردة ارتسمت على وجهه: «عجباً، دعيني أسجّل هذا الحدث الهام في مفكرتي! أدريانا وينسلو، تقول انها مخطئة في أمر ما!»

«آه، أنا لم أقل انني مخطئة. لقد قلت انني آسفة لما قلت. فبعد كل شيء، أنظر ما حدث لي من جراء ذلك، عجزي عن

الجلوس منتصبة لمدة أسبوع مما يوقف رحلة الجملين دامبو وجامبو.»

لقد كان أمراً مفاجئاً أن تسمع ضحكة بريس ثانية. وقد كان صوت ضحكته عالياً لدرجة أنه تردّد صداها في الصحراء، الأمر الذي أدهش بوللي وجعله ينبح، ثم لدى سماعه صدى نباحه أخذ يركض في ظلام الليل ليجد ذلك الكلب الآخر.

«كلبك هذا غبيّ كالجملين.»

«لكن ليس بقدر غباء صاحبه.» تفاجأت ادريانا من هذا الجواب الغامض، ولكنها قرّرت عدم التعليق على الأمر.

«على الأقل كنتُ محقاً. فنحن لسنا بعيدين جداً عن الممر. إذ انه يجب أن يكون هناك أكثر من تلال رملية وضفاف نهر حتى يسمع الصدى.»

سألته: «ما اسم هذا الممر؟»

«إنه مجرّد ممر. له اسم قديم لكنني لا أتذكره. إنه بعيد جداً ولا يلفت نظر السياح، لذلك لم يطلق عليه اسم انكليزي. وقد أراني إياه رجل طاعن في السن منذ عدة أعوام، لأنه يقول ان هذا الممر هو خزّان ماء، حتى عند الجفاف لا يجف لأنه يتغذى من نبع تحت الأرض. لذلك فإن هذا العام بالإضافة إلى فائض المياه من الشتاء، فإن البحيرة ستكون عميقة.»

سألته بعد قليل: «يبدو عليك وكأنك سبحت. هل هناك بحيرة في الجوار؟»

«لسوء الحظ لا، ولكنني ظننتُ أننا غير بعيدين عن الممر، لذلك استخدمت قليلاً من الماء التي نحملها معنا واغتسلت بها حماماً.»

نظرت أدريانا إلى نفسها بانزعاج، فقد كان بنطالها الكتاني وقميصها الحريري متسخين. فقالت: «أتمنى لو كان معي ثياب أخرى.»

«يمكنك ان تغتسلي وتغسلي ثيابك غداً عندما نصل إلى الممر. يمكننا ان نخيّم هناك طوال اليوم، إذا كنت ترغبين في ذلك، فهذا سيمنحك فرصة للشفاء.»

«أجل... أجل، أعتقد أنه علينا ذلك.» لأنه أمر غير مُجدٍ ان تتظاهر أن لديها القدرة الجسدية على متابعة الرحلة. ذلك لأنها ستضطر للمشي حتى يصلا إلى الممر، لأن ركوب الجمل أمر مستحيل بالنسبة إليها في الوقت الحاضر.

«هل أنت مستعدة لتناول طعام العشاء؟»

«بالتأكيد.»

«سيسرّك أن تعرفي أن هناك تغييراً في قائمة الطعام، سنتناول المعكرونة مع الصلصة، وبعدها نتناول سلطة الفاكهة مع القليل من شراب البرتقال والكريمة.»

«تبدو شهية.»

أحضر بريس صحناً يحتوي على تلك الوجبة الإيطالية الساخنة. وقد شعرت أدريانا بالألم بينما كانت تحاول الجلوس وإسناد ظهرها إلى الوسادة.

«سأعطيك مرهماً تدلّكين به مكان الألم بعد تناولك الطعام.» ثم ناولها الصحن.

فقالت مداعبة: «في هذه الحالة أتمنى أن يكون معك دلو مملوء بالماء.»

فنظر إليها نظرة فيها ابتسامة وقال: «أتعرفين يا أدريانا، يمكنك أن تكوني حقاً لطيفة عندما تريدين ذلك.»

كررت كلامه الذي قاله منذ قليل، وهي تبتسم: «آه... عجباً، دعني أسجل هذا الحدث الهام في مفكرتي. بريس ماكلين، يقول عني شيئاً لطيفاً!»

فضحك وقال: «أنت ذكية جداً، أتعلمين ذلك؟»

«أجل.» قالتها أدريانا ممتعضة. إذ ان ما قاله بريس يذكرها بما قاله لها والدها حين أحرزت علامات جيدة في شهادتها الثانوية، رغم الأيام الكثيرة التي تغيّبت فيها عن المدرسة.

فقال بريس وهو لا يزال يبتسم: «أنا ضعيف أمام النساء الذكيّات.»

«أنا لا أستغرب هذا.»

كانت هناك لحظة صمت، وقبل أن يتحوّل جوّ الصمت هذا إلى جمود، ابتسم بريس وقال: «لقد كنتُ أتساءل كيف تعتاشين. الآن أعتقد انني أعرف. أنت واحدة من تلك المحاميات اللواتي يدخلن إلى قاعة المحكمة بابتسامة مشرقة تشعر الطرف الآخر بالثقة، وبعد ذلك، عندما يدخل المتهم إلى قفص الاتهام! يبدأ ذلك اللسان الحاد والعقل الحاذق العمل مما يربك الطرف الآخر، الأمر الذي يؤدي به في النهاية إلى الاستخفاف بنفسه.»

فابتسمت أدريانا وهزّت رأسها.

ثم تابع قائلاً: «لا؟ لنر... ماذا هناك أيضاً؟ علاقات عامة؟ إدارة؟»

ابتسمت ثانية وهزّت رأسها.

«إذا قلتِ لي انك أمينة صندوق فلن أصدّق!»

فابتسمت الآن مؤكدة كلامه، وقالت: «في الحقيقة، لقد

كنت أمينة صندوق لمدة ثلاث سنوات عندما كنت في الجامعة.»

«إذا كنت كذلك فأنا أراهن أن كل الفتيات الأخريات في السوبر ماركت يكرهنك. إذ انني أراهن أنك كنت أسرع فتاة بينهن في إحصاء ثمن الأمتعة.»

أخذت أدريانا تقول في نفسها، انه في الواقع كان محقاً. فبعد مضي بعض الوقت، تعلّمت أدريانا ألا تعمل بالسرعة نفسها حتى لا يُنظر إليها بتلك النظرات الحاقدة أو تسمع كلمات تظهر غيرة الأخريات منها.

«حسناً؟ هلا قلت لي ماذا درست في الجامعة؟»

«سأفعل بعد أن أتناول هذا الطعام اللذيذ.»

«سأعتبر هذا وعداً.» ثم توجّه ليقيّد الجملين.

راحت أدريانا تراقب بريس بينما كانت تتناول طعامها، وأخذت تتذكر ما ظنّته في بادىء الأمر حين قال لها انه يقيّد الجملين في الليل، وأنه يربطهما إلى جذع شجرة أو شيء من هذا القبيل، لكن الأمر لم يكن كذلك إطلاقاً. فقد كان للجملين في قوائمهما الأمامية أطواق جلدية يربطها بريس ليلاً بجنزير ليس أطول من قدم واحدة. هذا القيد يعطيهما الحرية للحركة ليلاً للأكل والشرب، ولكن يمنعهما من الركض بعيداً.

بعد ما قيّد الجملين، أطعم بوللي، ثم انضم إليها ثانية مقدّماً لها طبق الحلوى الذي وعدها به، وبعد ذلك تابع أسئلته عما تعمله لتكسب رزقها.

فأخبرته بذلك قائلة: «أنا أصمّم نوعية معينة من الألبسة النسائية التي تحمل اسمي، وأمتلك بضعة متاجر تقوم بتسويقها حصرياً.»

www.elromancia.com

بدت الدهشة على وجهه واضحة ثم قال: «لم أعتقد أبداً انك تقومين بمثل هذا النوع من الأعمال. لقد ظننت أنك تقومين بعمل فكريّ.»

أوضحت بقولها: «لا تجني الكثير من المال إذا قمت بالأعمال الفكرية.»

«هذا سخيف.»

«أعتقد أنني كذلك قليلاً.» ثم أخذت تأكل من تلك الحلوى.

«كيف يمكن لشخص أن يصبح مصمم أزياء وصاحب متجر؟» ثم أفرغ معظم ما في صحنه بملعقتين.

لقد أوضحت أدريانا خلال تناولها الحلوى أنها بعد أن تركت المدرسة درست تصميم الأزياء لفصل واحد في جامعة سيدني، لتعمل بعدها مساعدة لمصممة أزياء في احدى دور الأزياء. لكنها في نفس الوقت تابعت دراسة إدارة الأعمال في الجامعة ليلاً. وبعد ان حازت على شهادتها الجامعية الثانية، كان عمرها ثلاثة وعشرون عاماً، وجاهزة للعمل منفردة.

«وقد كنتُ أكيدة من أنني لن أصبح ثرية إذا بقيتُ أعمل لقاء أجر شهري. هذا ما قالته السيدة التي كانت والدتي تعمل لديها. وأعتقد انني كنت حينها في الخامسة عشرة من عمري، عندما عادت أمي يوماً إلى المنزل وأخبرتني بما قالته لها السيدة. وقد قالت:

«لن تتغيّر أوضاعك طالما أنت تعملين مقابل أجر. عليك ان تؤسسي شركتك الخاصة التي توظف عاملات تنظيف، وترسل النساء للتنظيف خارج الشركة لقاء عمولة يحصلن عليها!»

ثم تابعت أدريانا حديثها قائلة: «وضحكت والدتي من كلامها... لكنني وجدتُ الفكرة مذهلة وقررت عندها أن يكون لي عملي الخاص الذي أديره. وعندما أصبحت مؤهلة، ووفرت مبلغاً من المال يدعمني في عملي، قمتُ بذلك!»

«ولا بدّ ان تكوني قد نجحت في ذلك.»

«حسناً، أجل، لقد...»

نظر إليها بريس نظرة حاذقة ملية وسألها: «هل الثراء أمر مهم جداً بالنسبة إليك؟»

«لا أريد أن أكون فاحشة الثراء، لأن ذلك يعني أن أفقد خصوصيتي. لكنني أريد مالاً يكفي لأعتمد على نفسي، ولا أعتمد على أي رجل يعيلني.»

فعبس بريس وسألها: «إذن لماذا ستتزوجين من آلان كارستيرز؟»

تنفست أدريانا نفساً عميقاً، ثم راحت تقول في نفسها. ان رجلاً مثل بريس يظن أن الزواج من امرأة يعني فقدانها لاستقلاليتها كما يظن معظم الرجال. ومع ذلك، لم تكن تنوي أن تقوم بنقاش حادٍ معه، لذلك قررت أن تشرح الأمر بهدوء.

«أنا وآلان صديقين يا بريس. نحن نحب ونحترم بعضنا، وكلانا يريد الأشياء نفسها في الحياة.»

«ما هي؟»

«مستقبل زاهر وشريك عمرٍ يشترك معه في كل شيء، لكن في الوقت نفسه لكل منهما الحق في فعل ما يريده وأن يكون ما يريده.»

«لكنك لم تذكري شيئاً عن تكوين أسرة.»

جفلت أدريانا ثم قالت: «لا، لم أذكر شيئاً.»

«ألا تريدين إنجاب أطفال؟»

«لا.»

«أستطيع أن أرى لماذا لا يريد كارستيرز إنجاب الأطفال، لأنه لا يريد أن يورط نفسه. لكن لماذا لا تريدينهم أنتِ يا أدريانا؟»

فنظرت إليه نظرة غاضبة وقالت: «هل لك أن تتوقف عن السؤال عن آلان؟ رغم كل شيء، ألم تكن أنت من نعتني بالحقد؟ أنت لا تعرف آلان جيداً، أتعرف هذا؟ لا تعرفه كما هو الآن. لذلك فإنك لا تستطيع أن تتكلم عن الأسباب التي تمنعه عن إنجاب الأطفال. أما بالنسبة إليّ، فأنا أعتقد انني لن أكون أماً صالحة.»

«لِمَ لا؟»

«آه، بحق السماء!»

«لهذا السبب إذاً. تقررين عدم إنجاب الأطفال لهذا السبب السخيف! العديد من النساء يعتقدن أنهن لن يكنّ أمهاتٍ صالحات، لكن بعد ان ينجبن أطفالاً، تتفجر مشاعر الأمومة الدفينة في أعماقهن.»

«أنا أشك في ذلك.»

«لماذا تقولين هذا؟»

اخفضت نظرها وقالت بتذمر: «هلا أنهيت الكلام في هذا الموضوع من فضلك؟»

«لا.»

«لأنني جرّبت ذلك قبل الآن ولم أحب ذلك.»

بدت الدهشة واضحة على وجهه، ثم سألها: «كان لديك طفل؟»

فردت موضحة: «لا. أظن أنه عليّ أن أخبرك بكل شيء كي تصمت.»

فسكت بريس وأخذ ينظر إليها بإمعان بينما راحت تخبره بسرعة وبإيجاز عن بؤسها وحزنها، عن سنين عمرها الماضية، عن كرهها لأخواتها ولوالدها، وحزنها على والدتها.

وقد كانت أدريانا تحاول خلال حديثها أن تحافظ على نبرة صوتها الواثقة، لتضطرب هذه النبرة بعد قليل معبّرة عن اضطراب صاحبتها العاطفي، حتى أنها شعرت بصعوبة إطلاق بعض الكلمات في بعض الأحيان.

لكن رغم ذلك وفي صمت الصحراء المريح للأعصاب، استمرت أدريانا في الكلام دون توقف، دون أن تشعر. فقد كان ذلك بمثابة تنفيس عن كل تلك السنين المريرة، تطهيراً لنفسها.

«لقد تركت المنزل بعد ما أنهيت دورة تصميم الأزياء. لكن أبي لحق بي وطلب مني العودة إلى المنزل كي أساعد العائلة. فنظرت في عينيه وقلت له رأيي به، انني لن أسمح له بأن يأخذ فلساً واحداً من مالي الذي أجنيه ليصرفه هو على الميسر، لقد قلت له انه شخص لا نفع منه، انه بئس الزوج والأب وانني لا أريد رؤيته ثانية.»

فقال بريس متعجباً لكن عينيه اظهرتا الاحترام لها: «إذاً، لطالما كان مزاجك كذلك.»

فنظرت إليه وقالت: «لا أعتقد ذلك...» فهي خلال الأعوام

القليلة الماضية كانت تسيطر على مزاجها تماماً لكنها هنا، في الصحراء مع بريس، ظهر سوء المزاج هذا ثانية.

فردّ بنبرة تظهر تفهّماً واضحاً: «لقد فعلت الصواب.»

لم تعلّق أدريانا على كلامه، لكن عينيها أغرورقتا بالدموع، وراحت تتساءل في نفسها هل فعلت الصواب؟ هل ستتخلص من تأنيب ضميرها لأنها تركت والدتها؟ لكنها توسّلت إليها كي تأتي معها، غير أن والدتها لم ترض. فقد كانت محطّمة نفسياً.

الأمر الوحيد الذي أراح أدريانا هو أن والدتها تخلّصت تدريجياً من ذكرى زوجها عند وفاته. حتى عندما توفي والد أدريانا، رفضت والدتها العيش معها، لأنها قررت أن تمضي بقية حياتها تهتم بأبنائها الذين اثبتوا بعد أن كبروا أنهم كوالدهم.

فقال لها بريس: «هيا، لا تبكي الآن وتفسدي صورتك التي في مخيلتي.»

فضحكت أدريانا وقالت: «لا أعتقد ان هنالك ضرورة لأسأل ما هي هذه الصورة.»

«دون أن تسألي. سأقول لك.»

فتنهدت ثم قالت: «حسناً، قل لي. ساتحمل ذلك.»

فابتسم وقال: «هذه هي.»

سألته مرتبكة: «ما هي؟»

«حقيقة أنكِ تستطيعين أن تتحملي ذلك. أعتقد انك تستطيعين تحمل الكثير دون أن تنهاري. أنت امرأة قوية وشجاعة جداً يا أدريانا وينسلو. امرأة نادرة...»

حدّقت أدريانا بوجه بريس الذي أظهر إعجابه الشديد. ثم

حوّلت نظرها عنه، وقالت له بانزعاج: «لا تفعل ذلك، بريس.»

«لا أفعل ماذا؟»

«لا تحبني ولا تجعلني أحبك أنا... أنا لا أستطيع تحمل ذلك. أنا...» ثم وضعت أدريانا صحنها بعد ان انتهت من أكل ما فيه بيدين مرتجفتين على البطانية. وأغمضت عينيها بقوة وقالت وهي تعرف أنها تكذب: «أنا أحب آلان وسأتزوج منه.»

وعندما فتحت عينيها ثانية، وجدت بريس عابساً، لكن هذه العبسة اختفت تدريجياً وقال مطمئناً إياها: «لا بأس، يا أدريانا. لا بأس. لا تضايقي نفسك كثيراً.»

فصرخت أدريانا وهي تغطي وجهها بيديها حتى لا يعرف أنها تبكي: «لكن الأمر ليس على ما يرام. فانا أحبك. أنا...»

خيّم الصمت عليهما، صمت رهيب. فقد مرّت الثواني ببطء شديد، وأدريانا متجمدة في مكانها خائفة من أن اعترافها قد يدفع بريس للقيام بعمل أحمق، عمل يندم عليه كلاهما لاحقاً. إذا لمسها أو قبّلها...

فتحت أدريانا عينيها على وسعهما فجأة عندما سمعت بريس يتحرك من مكانه. فحدقت به ووجهها مليء بالخوف والفرح معاً وتساءلت في نفسها ما الذي ينوي القيام به؟

لكن كل ما فعله هو أنه هزّ رأسه، أخذ البطانية، ثم توجّه ببطء نحو الجهة الأخرى من المخيّم ووضع البطانية على الأرض. وقال بصوتٍ متعبٍ جداً: «تصبحين على خير يا أدريانا. نامي جيداً.»

«تصبح... تصبح على خير.»

وبسرعة غريبة استسلمت للنوم بعد أن سيطر عليها الإرهاق الجسدي والعاطفي. لكن قبل ان تغرق في سباتٍ عميق، جالت في عقلها أفكار وأفكار تمنّت لو لم تكن.

ثم أخذت تقول في نفسها لو حاول معي ذلك مجدداً لما كنت اوقفته.

لكن أسوأ ما يمكن أن تعرفه هو أنه لم يعد يريدها.

الفصل السابع

عندما استفاقت ادريانا في اليوم التالي، لم تراودها أية أفكار أو أحاسيس مزعجة. إذ كان من الصعب عليها ان تفكر في غير ألم العضلات عند النوم على الأرض.

حاولت أدريانا الجلوس في الفراش والوقوف، لكنها لم تستطع. حاولت ثانية فوضعت يديها على خاصرتها وعضّت على أسنانها. فاستطاعت القيام بصعوبة، لتقوم بعد ذلك بتحريك كتفيها إلى الأمام ثم إلى الخلف حتى يخف التشنّج. لكن آلام نصف جسمها الأسفل كانت شديدة وخصوصاً في رجليها.

قامت ببعض الحركات لتخفيف الألم، ثم قامت بجولة في المكان بهدوء حتى لا توقظ بريس الذي كان لايزال مستغرقاً في النوم. شارك بوللي ادريانا في الجولة التي قامت بها، وراح ينظر بعينيه السوداوين إليها بين الحين والآخر كلمّا تأوّهت من الألم.

«كنت ربتّ عليك لو لم أكن خائفة من أن تعضني.»

اصدر بوللي صوتاً وكأنه يوافقها في ما قالته. وراح الاثنان يتجوّلان في المكان لبعض الوقت، وأخذت أدريانا تبحث عن الممر. لكن ضفة النهر لم تكن في خط مستقيم بل متعرج، هذا بالإضافة إلى أشجار الكافور الممتدة على طول ضفة النهر التي كانت تحجب الرؤية بعيداً. لذلك عادت أدراجها إلى المخيم لتجد أن بريس قد استيقظ وأنه يعدّ

www.elromancia.com

طعام الفطور. لم يكن قد حلق ذقنه بعد، لكن شكله لم يكن مرفوضاً. ففي الحقيقة، كان جذاباً جداً، هذا بالإضافة إلى قميصه الملتصق بجسمه الذي يظهر عرض كتفيه، والجينز اللائق عليه.

شعرت أدريانا بالتوتر عندما اقتربت من مكان وجوده. وعندما نظر إليها ورسم ابتسامة باردة على وجهه، ازداد توترها.

«أتشعرين بتحسن هذا الصباح؟» ثم نهض واقفاً وراح يمرن يديه ويتثاءب.

«أجل.»

«استطيع أن أرى من خلال مشيتك أنه لايزال هناك تشنج. لقد نسيت أن اعطيك ذلك المرهم... آسف.»

ثم نظر إليها نظرة دافئة فيها من الاهتمام ما زاد في توترها، وراحت تقول في نفسها، انه ما كان عليها أن تعترف بحبها له أو تخبره عن نفسها الكثير. إذ أن هذا النوع من الاعترافات يكسر الحواجز بين الناس، حواجز تفضل هي لو بقيت في مكانها.

«لا بأس بذلك. ساكون بخير بعد سيري نحو الممر، لأن ركوب الجمل أمر مستحيل، فأنا خائفة.»

«لهذه الدرجة؟» فقد ظن أن ارتعاش صوتها هو نتيجة تعبها.

«آه، حسناً، إن المكان ليس بعيداً.» ثم انحنى ورفع الغطاء عن ذلك الوعاء المعدني الموضوع على النار، فإذا برائحة ذكية تضرب أنف أدريانا، الأمر الذي جعلها تتنفس عميقاً وتتنهد.

«رائحة ذكية، أليس كذلك؟ ليس هناك ما هو افضل من طعام شهي في جو الصحراء الحار.»

سال لعاب أدريانا بينما اخذ بريس يسكب الطعام في صحن كبير.

«استطيع الحصول على المزيد بالتأكيد.»

فنظر إليها نظرة فيها تعجب وقال: «إلى أي حد؟»

«ليس كما فهمت.»

«لم تفهمي ما كنت أقصده؟»

«الأمر لا يحتاج إلى ذكاء كبير ليفهم.»

تظاهر بالغضب وقال: «آه، أدريانا، لقد جرحت.»

«سيحصل لك ذلك إن حاولت القيام بأي شيء.»

فحمل غطاء الوعاء الحديدي ووضعه على رجله وقال مستفزاً: «هيا، افعلي. وسترين إن كنت اهتم!»

فضحكت في داخلها.

صرخ بريس بنبرة تنم عن اضطراب: «بوللي، هل سمعت ذلك؟»

فأدار الكلب رأسه إلى الجهة الثانية بطريقة جعلت أدريانا تضحك عالياً.

«إنها على وشك الجنون. لا شك في أنه الجوع. لذلك، من الأفضل أن اسكب لها قليلاً من الطعام يا بوللي، قبل أن تتخطى الحدود.»

ورغم ضحكها المتواصل، أحست أدريانا ببرود في أحاسيسها. مع أن بريس كان لطيفاً ومسلياً. ورغم جاذبيته وسحره، الا انها لم تستطع منع نفسها من النظر إليه بمودة ورغبة.

ومهما يكن، فإنها عندما وجدته يحدق بها بإمعان، غيرت طريقة نظراتها إليه إلى نظرات عادية. وسألته اذا كان

ممكناً أن يصلا إلى دوفرداونز قبل حلول الظلام إذا توقفا عند الممر لفترة قصيرة.

فعبس بريس وقال: «في حال لم تلاحظي ذلك، فإن الجملين منهكين.» ثم أضاف بلهجة غاضبة مفاجئة: «إنهما يحتاجان لراحة. وقد اعتقدت انك انت ايضاً تحتاجينها.»

اثارت تنهيدتها المضطربة عبسة ثانية على جبهته لكنه لم يقل شيئاً.

فقالت هي: «إنه مجرد سؤال.»

فقال بانزعاج: «آه، هل تزعجك مرافقتي إلى هذا الحد؟»

«أنت تعرف أن ذلك غير صحيح.»

«أنا لن افرض شيئاً عليك، أنت تعلمين هذا.»

«استطيع أن أرى ذلك.»

«أهذا ما يزعجك؟ أني لن أفعل؟»

ففتحت أدريانا فمها من الدهشة واحمر خداها من الاضطراب.

فقام وابتعد عنها ثم قال: «جهزي نفسك للرحيل بعد نصف ساعة، سنصل إلى دوفر داونز اليوم حتى ولو متنا جميعاً.»

لم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة من المشي السريع تحت أشعة الشمس الحارقة حتى وصلا إلى الممر. نصف ساعة قضتها أدريانا وهي تتألم دون أن تجرؤ على التذمر. لكنها نسيت كل ذلك في اللحظة التي أصبح فيها الممر على مرآى منهما.

لقد كان المنظر رائع الجمال. لم يكن جميلاً كالواحة التي

مرا بها، بل أكثر روعة. مساحة كبيرة من المياه الزرقاء، محاطة بالصخور من جهتين، وشاطىء رملي صغير من الجهة الأخرى، ثم يمتد الممر، حيث بدت المياه عميقة جداً لتظهر سوداء وبلورية حين تمر عبر واد ضيق لا يتجاوز عرضه عشرة اقدام، حيث تظهر مرتفعات حمراء وسوداء على كلا الجانبين.

قالت أدريانا مذهولة: «إنه رائع.»

فقال بريس موافقاً إياها الرأي: «بالفعل رائع، أليس كذلك؟»

فابتلعت أدريانا ريقها بينما راحت تنظر إليه. فقد كان هذا جانب من شخصيته لم تكن تعرفه حتى الآن، حبه للحيوانات وللطبيعة. هذا الجانب الذي حرك كل ما في داخلها بينما هي تتوق للوصول إليه. ثم قالت: «بريس، أنا...»

لكنها لم تستطع متابعة الكلام عندما رأت عيني بريس تحدقان بها، ثم يصرخ بريس قائلاً: «لا، لا اعتذارات، لا توضيح للمواقف، لا شيء بعد الآن! لقد سمعت ما فيه الكفاية، يا أدريانا، فأنا لست دمية تحركينها في هذا الاتجاه أو ذاك حسبما تشعرين في تلك اللحظة. أنا رجل، وإذا لم تأخذي ذلك بعين الاعتبار، فإنني سألقنك درساً لن تنسيه، لأبرهن لك ذلك! وصدقيني، لن يكون اغتصاباً وكلانا يعرف ذلك، أليس كذلك؟»

فأخذت تراقبه وقلبها يخفق بسرعة وهو يجر الجملين إلى شجرة طلح. وقبل أن تفكر في ما يجب أن تفعله، سحب البطانية عن سرج دامبو، وحل وثاق الجملين، ثم توجه نحوها ثانية.

فتجمدت أدريانا في مكانها بسبب الغضب الشديد الواضح عليه. فوقف بعيداً عنها مسافة بضعة ياردات، يحدق بها.

«سنستانف سيرنا نحو دوفر داونز بعد الغداء. هذا سيمنحك ثلاث ساعات للراحة والاستحمام وتنشيف ملابسك.» ثم رمى إليها البطانية وقال: «إليك هذه... خذيها معك حتى تلفي جسمك لحين تجف ملابسك. واطلب منك أن تبقي في جانب البحيرة ذاك، لأنني سأكون في الجانب الآخر، بما أننا سنسبح في الوقت نفسه.»

«أنا... أنا في حاجة إلى صابون.»

«إن الصابون موجود في إحدى الحقائب. لا تطلبي مني ان اساعدك على إيجاده. سأحضره لك بعد أن اهتم بالجملين واسبح قليلاً. اقترح ان تقومي بالعمل ذاته. فأنت تشعرين بالحر الشديد. كما اشعر أنا!»

حدقت به لبضع لحظات غاضبة منه ومن نفسها. فهي لا تستحق أن تعامل بهذه الطريقة! لكنها تفترض بعد كل ما جرى، أن أية محاولة من طرفها ربما ستكون بمثابة خطوة لإغوائه.

لتعبر عن غضبها، أخذت البطانية عن الأرض وتوجهت نحو الجهة الأخرى من الممر، وهي تقول انهما لن يصلا إلى دوفر داونز قريباً.

وحتى تكون صريحة مع نفسها، فهي لم تكن تتوق لرؤية آلان ثانية، لتخبره بأنها ليس فقط لا تريد الزواج منه، لكنها لا تريد أن تستمر في علاقتها معه أيضاً. فهو يستحق زوجة... أو حبيبة لا يشاركه فيها حبيب آخر... إذ أنها

ستحتاج إلى وقت طويل حتى تنتزع بريس من عقلها، وقلبها وجسدها.

وصلت أخيراً إلى رقعة ذات صخور كبيرة ملساء تمتد في الماء تدريجياً. لذلك فقد كانت تلك الصخور المكان المثالي الذي تستطيع أن تنزلق منه أدريانا إلى الماء وتنزع عنها البطانية.

نظرت إلى الوراء لترى أن بريس يقف في اتجاه معاكس لها، لذلك نزعت ثيابها بسرعة وغطست في الماء. وقد بقيت بضع دقائق حتى تكيفت مع برودة الماء غير المتوقعة، لكنها في غضون تلك الدقائق لم تنظر إلى المخيم أو إلى بريس.

بعد قليل، سمعت ادريانا صوت الماء بعدما غطس بريس، فأحست برعشة تغمرها، فلم تلتفت إليه، كي لا تلتقي نظراتها بنظراته.

لم تنظر إليه عمداً، لكن نباح بوللي لفت انتباهها، وبالنظر بطرف عينيها، تفاجئت برؤيته وهو يخرج من الماء وكلبه يحوم حوله.

ودون ان ينظر إليها، حمل ثيابه وتوجه نحو المخيم.

سبحت ادريانا في اتجاه الصخرة دون خوف، وحاولت أن تسيطر على خفقان قلبها السريع وارتفاع حرارتها.

وحين قررت ان تخرج من الماء، وجدت ان الانزلاق اسهل بكثير من التسلق عليها، إذ ان سطح الصخرة الذي تغطيه الماء منحدر وتغطيه اعشاب مائية. حاولت أن تجد مكاناً تثبت فيه قدمها، لكنها لم تستطع. حاولت بعد ذلك أن تمد يديها مفتوحتين إلى الأسفل في محاولة لأن ترفع نفسها

على الصخرة، لكن لم تكن لديها القوة لأن تتغلب على قوة الماء.

كانت تتألم بشدة وبدأت تحس بخطر حقيقي عندما ظهرت قدما بريس الحافيتان على البطانية أمامها. رأته ينظر إليها.

«تواجهين مشكلة؟»

«أجل، أنا... أنا لا أستطيع ان اثبت قدمي في مكان كي أخرج من الماء.»

فقال مستهزأً: «إنه من السهل الخروج من الجهة الأخرى. اسبحي إلى هناك. سآخذ الصابون والبطانية وألاقيك هناك.» ثم انحنى ليأخذ البطانية، لكنه لم يفعل. إذ أنه انتصب واقفاً وابتسم ابتسامة ماكرة، وقال: «أو انك كنت تتوقعين ان اساعدك على الخروج من الماء؟»

«حسناً، لا، لكنني... لا اعتقد أنني قادرة على السباحة إلى هناك. رجلي متشنجة.»

فضحك ضحكة ساخرة وقال: «في هذه الحالة سيكون عليك الغرق، أليس كذلك؟»

اكفهر وجهها من شدة الألم، وراحت تنظر إلى الجهة الأخرى بقلب خائف. لقد كان المكان بعيداً جداً.

ظلت تلك القساوة بادية على وجهه حين قال: «إذا كنت تظنين أنني قد أخرجك من الماء ثم أذهب بعيداً، فأنت مخطئة يا أدريانا وينسلو! لقد اتعبتني كثيراً، وأنا قررت ألا أكون رحيماً بعد الآن!»

فراحت أدريانا تحدق به من الأسفل إلى الأعلى، وما أن نظرت في وجهه حتى رأته يتأملها.

فتأثرت من نظراته، ولم تستطع ان تقول شيئاً.

فتابع كلامه قائلاً: «الأمر منوط بك يا أدريانا.» ثم انحنى ورمى قطعة الصابون وراءه ومد يده نحوها، وقال: «يمكنك أن تختاري بين الماء. وبيني. لكنني انبهك، كنت سأختار الماء لو كنت مكانك!»

www.elromancia.com

الفصل الثامن

ارتعشت يدها ما ان لامست يد بريس، لكن عينيها كانتا تحدقان به بشغف. لقد قررت القيام بذلك، حتى لو كانت ستعاني من جراء ذلك طوال حياتها.

«إذاً!» وقد تحولت ابتسامته المتفاجئة إلى ابتسامة انتصار. فقبض بيده على معصمها ورفعها وكأنها ريشة، رفعها ووضعها إلى جانبه في حركة واحدة سريعة.

أخذ بريس يتأملها بإمعان، ثم قال: «كنت أعلم انك جميلة، لكنني لم أكن اعرف انك جميلة إلى هذه الدرجة.»

حدقت به أدريانا وهي تفكر في أنها لن تستطيع أن تقول له الكلام ذاته في المقابل. إذ ان وصفه بالجميل سيكون غير كافٍ تماماً. فهو رائع، يخطف الأنفاس. إنه كامل الأوصاف مثل أدونيس، لكنه أقوى، وأضخم! وأحست بجفاف في ريقها لمجرد التفكير في ذلك.

سأل بريس: «اتظنين أنك حقاً تستطيعين خداعي؟ لن أرحمك، اتعلمين. لم يعد هناك مجال للرحمة الآن!»

تأوهت أدريانا من شدة الألم ورفعت قدمها قليلاً وراحت تضغط أصابع قدمها على الصخرة، محاولة فك التشنج. فارتسمت ابتسامة بطيئة ماكرة على وجهه الوسيم، ثم ركع على ركبة واحدة، رفع قدمها وراح يدلكها بمهارة فائقة. الامر الذي تسبب باختلال توازنها، وحتى لا تقع ثانية في الماء وضعت يديها على كتفيه.

«لديك قدم صغيرة جداً.» ثم راح يدلك قدمها بإبهاميه مما خفف الألم.

أخذت أدريانا تحدق به بشغف ثم لفت يديها حول كتفيه.

لكن بريس لم يتوقف عن التدليك، بل سألها: «يعجبك ذلك، أليس كذلك؟»

فقالت: «أجل، أجل.»

«وماذا عن قدمك؟»

قالت له أدريانا: «افعل ما شئت.»

رد قائلاً: «إن هذا بمثابة دعوة مفتوحة يا أدريانا... أأنت تعنين حقاً أن افعل ما أريده!» وعندما هزت رأسها إيجاباً قال لها: «الآن انت لي، يا أدريانا. لي.»

فقالت له مؤكدة: «أجل، يا عزيزي، أجل.»

وبعد مرور بعض الوقت راحت تقول في نفسها انها تعرف أنه سيقول شيئاً يفسد ما كانت تشعر به.

قال بريس: «لا يمكنك أن تتزوجي كارستيرز الآن.»

شعرت أدريانا بانزعاج في داخلها. هكذا هو الأمر... من هنا يبدأ كل شيء... المتطلبات... أن يخبرها بما تستطيع وما لا تستطيع فعله، كل هذا لأنها خانت حبها له.

التقطت ادريانا انفاسها مذهولة، رفعت رأسها لتنظر إليه، ثم قالت في نفسها، ما الذي قلته لنفسي الآن؟ لا يمكنني أن أحبه، ليس حقاً. يجب أن يكون الأمر رغبة فقط. يجب أن يكون كذلك.

لكنها كانت تعلم أن الأمر ليس كذلك.

«لا، أنا لن اتزوج من آلان.»

رأت أدريانا في عيني بريس الزرقاوين نظرة انتصار

وتساءلت ما إذا كان يحبها مؤقتاً فقط. فالأشخاص مثل بريس لا يحبون حقاً. لأنهم عندما يقولون انهم يحبون، فإن هذا يعني انهم يرغبون، يريدون، أو يحتاجون. يتزوجون من الفتيات لانهم يظنون أنهم احبوهن، لكنهم في الحقيقة يتزوجونهن فقط لاقامة علاقات حسية غير محدودة معهن، لكن سرعان ما يملون ويبدأون البحث عن متعتهم في مكان آخر. المشكلة عندئذ تكون أن طفلاً قد ولد.

وتابعت أدريانا حديثها قائلة: «لن اتزوج منك أيضاً يا بريس.» وقبل ان يتفوه بأية كلمة تابعت: «نحن لسنا مناسبين لبعضنا.»

فاكفهر وجهه وقال: «أتستطيعين قول ذلك ونحن في هذه الحالة؟ نحن نحب بعضنا.»

فقالت بصوت خافت: «لا تفعل يا بريس.»

فرد بنبرة معنفة: «لا أفعل ماذا يا أدريانا؟ لا ألفظ كلمة حب؟ ربما عليّ أن انكرك بما قلته لي عندما كنت في ذروة انفعالك.. لقد قلت انك ستكونين لي يا حبيبتي. هلا قلت لي ماذا عنيت؟»

رفضت أدريانا أن تتفوه بكلمة.

فصرخ قائلاً: «عنيت علاقة عابرة فقط، أليس كذلك؟ هذا كل ما أردته مني، أليس كذلك؟ وليس حبي أو أي شيء قد استطيع أن اقدمه لك. والمضحك في الموضوع هو أنني استطيع ان اعطيك المزيد.» ثم أضاف بنبرة متألمة: «استطيع أن اعطيك اكثر بكثير مما صوره لك عقلك عندما رأيتني للمرة الأولى. تباً لك يا أدريانا. تباً!»

أحست ادريانا بصدمة بسبب صدق عواطفه وثورته.

ربما احبها فعلاً، وربما تخيل أنه يستطيع ان يهيىء لها حياة مستقرة في هذه المنطقة. لكنه إذ ظن أن ادريانا قد تكلمت وهي في ذروة انفعالها، أفلم يفعل هو مثلها؟ ماذا يمكن أن يفعلا إذا اكتشفا يوماً ما في المستقبل أن ليس بينهما أي شيء مشترك، وأنها لم تستطع ان تكون خاضعة له؟

لكن رغم تفكيرها السليم المنطقي، لفت ذراعيها حوله ثانية، لتهدىء من روعه، لتقول له انها تحبه وانها له إلى الأبد. هزت أدريانا رأسها مندهشة، إذ أنها حتى أيام قليلة ماضية لم تكن تحلم بأن تقوم بمثل هذه العمل. ربما بريس كان على حق عندما قال لها ان الصحراء تغير الناس.

«وماذا تعني هزة الرأس هذه؟»

فقالت وهي تلف ذراعيها حول خصره: «آه، بريس... بريس. أشعر أني مرتبكة جداً.» ثم نظرت إليه بعينين تألمتا لرؤية خيبة الأمل والاستهزاء على وجهه، وتابعت قائلة: «أنا أحبك... أنا أحبك!» ثم حضنته بقوة وانهالت عليه بالقبلات.

أحست ادريانا به يرتعش، لكنها لم تكن تتوقع أن ترى في عينيه تلك النظرة. لقد كانت نظرة سعيدة... للغاية! ظل بريس ينظر إليها ثم تحولت نظرته تلك إلى نظرة حائرة هز رأسه هو أيضاً وقال: «انت لا تعلمين ما تريدين، اليس كذلك؟»

«ما أعرفه هو أنني أريدك أنت. لكن يا بريس، أرجوك حاول أن تفهم. زواجنا... على الأرجح لن ينجح.»

فحدق بها بريس ملياً حتى أنها لم تستطع أن تفهم تلك

النظرة الغريبة في عينيه. فقد بدا وكأنه يخفي أحاسيسه عمداً، وقال: «اعتقد أنك محقة. زواجنا محكوم عليه بالفشل.»

فردت أدريانا بنبرة حزينة لأنه وافقها الرأي، انه لم يحاول حتى اقناعها، قائلة: «آه... هل هو حقاً كذلك؟»

«لن ينجح إطلاقاً لسبب واحد هو أنك لا تريدين إنجاب اطفال. إذ على المرأة التي أريد الزواج منها ان تنجب على الأقل طفلاً واحداً.»

«آه... حسناً، بريس، أنا...»

فقاطعها حاسماً: «ليس فقط لهذا السبب، فأنت فتاة متمدنة. لن تتحملي الحياة هنا. ستتحملين الحرارة، الغبار، البعوض، الوحدة ولفترة قصيرة فقط. أما بالنسبة إليّ... فأنا لن أتحمل ضوضاء المدينة طوال حياتي. سيكون زواجنا مضحكاً ونحن نعيش مئات الأميال بعيدين عن بعضنا ودون أولاد.»

«أجل... اعتقد ذلك، لكن...»

«لن يجدي الحديث نفعاً طالما أننا نستخدم كلمة، لكن يا أدريانا، فالأمور واضحة كما فكرت في الموضوع، وأزداد اصراراً على عدم الزواج منك اكثر مما تصرين أنت. الأمر منطقي... استطيع ان أتأكد من ذلك الآن. لكن، يبدو أن هناك أمراً واحداً نريده من بعضنا، أليس كذلك؟»

ثم أوقف النقاش عندما بدأ بتقبيلها ثانية، الأمر الذي وافقت عليه ادريانا، إذ أنها كانت ستقول له انها غيرت رأيها بشأن كل ما قالته له سابقاً، انها لن تعمل، ستسكن حيث يسكن، ستنجب اثني عشر طفلاً منه!

وراح بريس يقبلها، ثم همس في أذنها: «دعينا لا نتكلم عن المستقبل الآن، هنا.. في هذه اللحظة.. ليس هناك من اشخاص آخرين، ليس هناك غد. فقط أنت وأنا، لدينا أمر جد مميز يجمعنا، يا أدريانا لنتمتع به. إنسي كل شيء ما عدا ايامنا المعدودة معاً...»

فقالت أدريانا: «آه، أجل، يا بريس. أجل!»

لقد كان يوماً ممتعاً، مثيراً، وغريباً بالنسبة لأدريانا.

ثم أضافت: «أعتقد انني غير متشوقة لرؤية آلان ثانية.»

فشعرت أن بريس قد اضطرب: «ماذا ستقولين له؟»

«الحقيقة.»

«وهي؟»

«أنني لا استطيع الزواج منه، انني وقعت في غرام رجل آخر.»

«و؟»

«وماذا؟» ثم رفعت رأسها لتنظر إليه.

«وأنك لن تقابليه ثانية. أبداً.»

فانتصبت أدريانا جالسة وقالت بلهجة غاضبة: «آه، أجل، سأفعل يا بريس ماكلين. لقد كان آلان صديقي لفترة طويلة قبل أن يصبح حبيبي. لن أتنازل عنه فقط لأنني أغرمت بك!»

فحدق بريس بها. ثم حاول فجأة ان يسيطر عى نفسه وأعادها بين ذراعيه وقال: «حسناً أعتقد أن عليّ أن اقوم بزيارات منتظمة إلى سيدني.»

فنظرت إليه وقالت: «أنت... أنت ستأتي إلى سيدني لزيارتي؟»

فظهر التعب في عينيه، لكن ابتسامته كانت مثيرة جداً وقال: «أنت لا تظنين أنني سأتنازل عنك بهذه السهولة، أليس كذلك؟» ثم ضمها إلى صدره وتابع حديثه قائلاً: «بالطبع سآتي لزيارتك. تماماً كما اتوقع منك زيارتي. سأكون حبيبك، يا امرأة، الأمر الذي لا استطيع القيام به بالمراسلة.»

الفصل التاسع

كان بريس غارقاً في العمل صباح اليوم التالي، لدرجة أن أدريانا بدأت تفكر في ما إذا كان حبيب الليلة الماضية هو من صنع مخيلتها، فبعد أن تناولا طعام الفطور، شدا رحالهما مع ساعات الفجر الأولى، لأن بريس قال إن عليهما الوصول إلى دوفرداونز قبل حلول الظهر.

خيم الصمت على بريس وأدريانا وهما في طريقهما إلى دوفر داونز. وبعد مضي ساعة على سيرهما، ورؤيتهما لمظاهر الحضارة التي تشير إلى اقترابهما من المكان، تذكرت أدريانا أنها لا تعرف تفاصيل كافية عن حياته، عمله وعائلته. حتى أنها لم تعرف كم عمره!

راحت أدريانا ترفع نفسها حتى تستطيع رؤية بريس بوضوح، الأمر الذي دفعه إلى النظر إليها نظرة متسائلة. وراحت تقول في نفسها انه يبدو رائعاً هذا الصباح... ثم أخذت تنظر إليه بإمعان حتى شعرت برعشة تغمرها.

فسألها وهو ينظر إليها نظرة ماكرة من عينيه الزرقاوين: «نعم؟»

«آه، أنا... لقد كنت أفكر. أنا لا أعرف كم تبلغ من العمر، أو... أو أي شيء آخر عنك.»

فسأل مستغرباً: «الآن تسألين!»

فاحمر وجهها نتيجة احساسها بالذنب، وشعورها الكبير بالرغبة وسألته: «حسناً، كم تبلغ من العمر؟»

www.elromancia.com

«سأبلغ الثلاثين الشهر المقبل. أتريدين أن تخبريني كم عمرك؟ رغم أني أعتقد أنك تبلغين من العمر سبعاً أو ثمان وعشرين عاماً.»

فبدا على أدريانا المفاجأة لدقته في تحديد عمرها، مما أدى به إلى الضحك. ثم تابع حديثه قائلاً: «تذكري، لقد اخبرتني القليل عن حياتك. وكل ما فعلته هو أنني اضفت عدد السنوات التي أمضيتها في الجامعة إلى سنين عمرك الثماني عشرة عندما تركت المدرسة، ليكون عمرك بذلك أربعاً وعشرين عاماً، ثم أضفت إليها سنتين أو ثلاث من العمل الشاق لفتاة طموحة مثلك حتى تحقق النجاح في عملها.»

«لقد بلغت الثامنة والعشرين في شهر أيار - مايو - الماضي.»

«أنت من مواليد برج الثور.»

«أجل.»

«ذلك واضح.»

«وماذا يعني ذلك؟»

رفع يديه مستهزأً ليدافع عن نفسه، وقال: «لا شيء، فالنساء من برج الثور لطيفات، جميلات ومطيعات.» ثم أضاف وبسمة حزينة ارتسمت على وجهه: «تظهر واحدة منهن بهذه الصفات كل مئة سنة أو اكثر.»

فراحت تضربه، لكنه أمسك معصمها وقال: «أنت شقية، شقية! كنت أعلم أني سأتمتع بوقتي معك، أدريانا أنت تماماً مثل بوللي. مزاجية... متوحشة... لكن رغم ذلك، رفيقة جيدة!»

جفّ ريق أدريانا عندما رفع بريس كفّها إلى فمه وراح يقبلها، الأمر الذي جعلها تشعر بالإثارة والخوف. لقد ضمّها إلى ما معه في الصحراء، مثل كلبه. لقد جعل منها حيوانه الأليف، الذي يحوم حول صاحبه ليربت عليه، أو يقلب على ظهره عندما يداعبه صاحبه بأصابعه.

اعتراها شعور بالغضب لكبريائها نتيجة ذلك التشبيه فسحبت كفّها من يده. لكنه ضحك ثم شدّ جامبو ليقترب أكثر من دامبو، فيمسك رأسها براحة يده ويقول: «هذا لن يجدي نفعاً بعد الآن يا أدريانا. حتى ولو من بعيد...» ثم قرب رأسه من رأسها وقبلها. ثم استأنف حديثه قائلاً: «أرأيت، يا عزيزتي.» نظر بريس في عيني أدريانا وقال: «أنت لي، وليس في إمكانك فعل شيء حيال ذلك، إذاً، كفي عن المحاولة، كفي عن محاربة ذلك، توقفي عن مواجهة كل ما فرضته أمنا الطبيعة.» ثم قبلها ثانية.

لكن رغم انجذابها الشديد إليه، الا أنه بقي في داخلها ما يمنعها من الاستسلام كلياً لهذا الرجل، لأي رجل. ثم أبعدت رأسها عنه.

نظرت إليه وقالت بصوت واهن: «لكن هنا ينتهي الموضوع!»

جفلت أدريانا لدى رؤيتها ذلك الإصرار العنيد في تلك العينين الزرقاوين الجميلتين، ثم قال مصححاً ما قالته: «بل هنا يبدأ الموضوع!»

وفجأة، ابتسم ودفع جامبو ليتجاوز دامبو. وبعد أن اقتربا من البوابة الأخرى قال بريس مسروراً: «لقد شارفنا

على الوصول.» أما أدريانا فقد كانت مرتبكة أكثر من أي وقت مضى.

وهما في طريقهما نحو البوابة، سمعا صوت محرك، نظرا نحو مصدر الصوت، لتظهر دراجة نارية تتحرك مسرعة، تاركة خلفها غيمة من الغبار.

«إنه بيت أحد مربي الماشية في دوفر داونز. لا بد أنه في طريقه لتفقد العمل.»

توقفت الدراجة قرب جامبو الذي لم يقم بأي حركة، لكن دامبو قام بحركاته المعتادة، إذ أنه يثور عندما يقترب منه أي شيء، حتى أطفأ بيت المحرك.

قال بريس للصبي المتجول المبتسم لهم: «مرحباً يا بيت.»

«مرحباً يا سيدي. عدت باكراً؟»

«أجل. فقد وجدت شيئاً في طريقي وكان عليّ أن أعيده إلى هنا.»

فتوجه الصبي ذات الوجه الأسود نحو أدريانا وقال: «يا لجمال ما وجدت.»

«أعتقد ذلك يا بيت.»

«عليّ أن أذهب يا سيدي. الطاحونة لم تعمل كما يجب أمس وعليّ إصلاحها.»

«أتريد أن تأخذ بوللي معك؟»

نبح بوللي فرحاً وقفز إلى المقعد. ثم قال الولد: «أراك لاحقاً يا سيدي.» ثم أدار بيت المحرك وانطلق بدراجته النارية، وبوللي يجلس على المقعد الخفي يلوح بذنبه محيّياً.

لم تضحك أدريانا كما كان قد يمكن أن تفعل عادة لأنها كانت تنظر إلى بريس عابسة، ثم قالت بلهجة اتهام: «سيدي؟»

فهز بريس كتفيه قائلاً: «لقد حاولت أن أخبرك.»

«هل تعني أنك تدير دوفرداونز؟»

فرد مبتسماً: «لا، أنا أمتلكه.»

«أنت... أنت تمتلكه؟»

«أخشى ذلك.»

ضاقت عيناها من المفاجئة وقالت: «وكم تبلغ مساحة دوفر داونز؟»

«حوالي عشرة آلف ميل مربع.»

فغرت أدريانا فمها عجباً.

فقال بريس مستفزاً إياها: «أأقولها لك؟» ثم انحنى نحوها وراح يهمس في أذنها.

فدفعته أدريانا بغضب وقالت: «أظن أن خداعي يروق لك!»

«أتعتقدين ذلك؟»

«أجل!»

فهز كتفيه ثانية وقال: «يمكن أن تكوني على حق.»

«وما هي المفاجآت الأخرى التي تخبئها لي؟»

«عليك فقط الانتظار وستعرفين، هلا فعلت؟»

«آه، أنت...!»

«هدئي روعك، هدئي روعك، يا آنسة ثور!»

تنفست أدريانا عميقاً، مصممة على ألا تمنحه الفرصة لأن يراها متفاجئة أو مصدومة من أي شيء آخر!

لكنها لم تستطع فعل ذلك عند وقوفها أمام مدرج عليه العديد من طائرات الهليكوبتر وطائرة بيتش بارون بمحركين إضافة إلى مسكن العائلة الكبير جداً والذي يقع على رأس تلة مطلة على نهر. خرجت سيدة أنيقة بالزي الأزرق من المنزل وتوجهت نحوهما لتحييهما، وهي تبدو وكأنها قد خرجت للتوّ من صالون تجميل مكيّف.

قال بريس بينما كانت تلك المرأة تقترب منهما: «انها والدتي.»

فقالت أدريانا في نفسها ان هذه المرأة لا تشبه اطلاقاً شكل والدته التي رسمتها في مخيلتها. فوالدة أدريانا تغيرت كثيراً مع مرور السنين، لكن والدته كانت نحيلة وجميلة مع بعض التجاعيد القليلة في وجهها.

«يا عزيزي بريس، لماذا رجعت باكراً؟» ثم نظرت بعينين زرقاوين تماماً كعيني بريس إلى حيث كان دامبو الذي توقف كالعادة خلف جامبو. ثم قالت: «ومن لدينا هنا؟»

أوقف بريس الجملين قرب المنازل حيث ظهرت مجموعة من الأهالي وتجمعوا بالإضافة إلى السيدة ماكلين وراحوا يحدّقون بأدريانا بفضول شديد.

«إنها أدريانا وينسلو، يا أمي. طيارة شجاعة تحطمت طائرتها في مكان ليس ببعيد عن المكان الذي كنت أقيم مخيمي فيه. لم تتأذ، لكنني لم أستطع أن اتركها وسط الصحراء، أم كان عليّ أن أتركها؟»

نظرت السيدة إلى أدريانا بإمعان، ثم نظرت إلى ابنها وابتسامة غريبة على وجهها: «إذن احضرتها معك.»

فردّ بريس بابتسامة غريبة مماثلة قائلاً: «أجل، أحضرتها معي.»

كانت تدرك أدريانا أن هذه الابتسامات تخفي وراءها كلاماً بين بريس ووالدته. لكنها كانت متعبة لدرجة أنها لم تكن قادرة حتى على مجرد التخمين. تنهدت، وكتفاها في إرتخاء تام.

«أعتقد أن صديقتك متعبة، يا عزيزي.»

«أجل، أتخيل ذلك.»

نظرت أدريانا إلى عينيه المدركتين، لكنها جعلته يساعدها على الترجل عن الجمل وتوجه معها عبر ذلك الممر الرائع إلى داخل المنزل المبرّد. هزّت رأسها بينما كانت تستنشق هواء التكييف البارد، تنظر إلى البهو الأنيق، الغرف الواسعة التي تؤدي إلى القاعة الكبيرة. فلا عجب أن أمه تبدو هكذا!

ثم أدخلت إلى غرفة جلوس كبيرة فيها مدفأة كبيرة ونوافذ تغطيها ستائر فخمة وتطل على شرفة عريضة. ويغطي أرض المنزل الخشبية سجاد عجمي، ويغطي الكراسي والأرائك قماش اخضر مطرز. ولوحات زيتية في أطر مذهبة وصور قديمة رائعة معلقة على الجدران المغطاة بورق الجدران الفاخر. هذا بالإضافة إلى ثريا من الكريستال معلقة في السقف. لذلك فإنه من السهل الاعتقاد بأن هذه الغرفة لا توجد إلا في منازل العائلات العريقة.

نظرت أدريانا حولها في ارتباك تام. وراحت تتساءل لماذا أخفى بريس حقيقة ثرائه عنها؟ لماذا... بالتحديد بعد أن أصبحا حبيبين؟

«أعتقد أن أدريانا في حاجة لأن تستحم وتغير ثيابها يا

أمي. وأنا كذلك، لكن عليّ أولاً الاتصال بالسلطات المختصة، أعلمهم بأنها بخير. هل سمعت شيئاً يتعلق بتحطم طائرة صغيرة خلال نشرة الأخبار؟»

«أنت تعلم يا بريس أنني لا أستمع إلى نشرات الأخبار عندما أكون هنا.»

هزّ بريس رأسه، وتساءلت أدريانا أين تسكن والدته عادة. من الواضح ليس هنا في دوفر داونز. إذ لا يمكن لشخص واحدٍ أن يسكن في منزلٍ كبيرٍ كهذا.

ولعل ظهور فتاة جذابة جداً كان بمثابة إجابة عن تساؤلها. سألت الفتاة: «إنه وقت شرب الشاي، يا سيدة ماكلين، هل تريد السيدة بعضاً منه؟»

«أجل، يا هيلين. وبعض السندويشات والكيك. فلدينا شخصان جائعان هنا.»

قال بريس من حيث كان يقف، واضعاً إحدى يديه على ستارة إحدى الشبابيك: «مرحباً، هيلين.»

تفاجأت الفتاة وقالت: «آه... سيد ماكلين! لم أتوقع ان أراك هنا.»

قالت أدريانا في نفسها ان احمرار تلك الفتاة يزيدها جمالاً، وأحست بالغيرة تفتت قلبها.

ثم تلفّتت أدريانا لتجد بريس ينظر إليها، فرفعت ذقنها مكابرة. لكنه أجابها بابتسامة هدأت من روعها. ماذا هناك بعد لتكتشف عن هذا الرجل الذي تحب؟ إذا كان يعتقد أنها ستشاركه إذاً فهو يخبيء المزيد!

«ضعي الطعام على صينية يا هيلين. الآنسة وينسلو ستتناول الطعام في غرفتها.»

فاستدارت هيلين وغادرت الغرفة، تاركة صورة واضحة لها في ذهن ادريانا، ساقان طويلتان، عينان جميلتان.

فقالت السيدة ماكلين: «فكرة حسنة. سأقودك إلى غرفتك يا أدريانا، من ثم يستطيع أن يخبرني بريس عن مغامرتك.»

ثم قادت أدريانا إلى خارج القاعة، وانحرفت يميناً في اتجاه الجزء الخلفي للمنزل.

قال بريس بصوت عالٍ: «ليس في هذا الإتجاه يا أمي. قوديها إلى غرفة بريت.»

رأت أدريانا المفاجأة على وجه السيدة، لكن هذه الأخيرة هزّت رأسها وقادتها إلى حيث قال بريس وقالت: «بريس معه حق. إذ أن جناح الضيوف موحش.»

«من هو بريت؟»

«أخو بريس الأصغر ليس لدي غيرهما. ليس لدي أية بنات، رغم أني أحب واحدة جداً.»

«ألا يعيش بريت في المنزل الآن؟»

«لا. فهو يدير أملاك العائلة في تشانيل كانتري. وتسمى لولاند داونز. ها قد وصلنا.» ثم توقفت وفتحت باباً على الجهة اليمنى لتدخل أدريانا إلى غرفة كبيرة مصممة ليستخدمها رجل، فهي تحتوي على اثاث قاتم اللون، وبطانية زرقاء تغطي السرير بالإضافة إلى بعض الأشياء الأخرى.

ثم تابعت السيدة قائلة بتردد: «أتمنى أن تعجبك.» ثم توجهت نحو الستائر وأزاحتها، بعد ذلك أشارت إلى باب مجاور وقالت: «ها هو الحمام، لكن أخشى أنه سيكون عليك مشاركته مع بريس. فغرفته من الجهة الأخرى.»

جفلت أدريانا للحظات، منزعجة من حقيقة أن نوايا بريس باتت واضحة بالنسبة لوالدته. ثم قالت أدريانا بابتسامة مصطنعة: «لا بأس، أعني أنه حقاً لا يهم، بما أن بريس سيطير بي إلى سيدني بعد ظهر اليوم.»

«حقاً؟ فقد ظننت أنك ستمضين الليلة هنا على أن يوصلك إلى سيدني صباح الغد.»

فاحمر وجه أدريانا وقالت: «آه.»

نظرت السيدة إلى أدريانا نظرة عميقة، لتتحول هذه النظرة لاحقاً إلى نظرة اهتمام. وقالت: «يمكنك أن تناقشي الأمر مع بريس عندما يحضر لك الطعام. أما الآن فسأحضر لك مناشف جديدة، وثياباً لترتديها. لدي هنا بعض الأشياء التي من المفروض أن تناسبك، ولكنها ليست محتشمة كثيراً.»

«أنت لطيفة جداً.»

«يا عزيزتي، أنا مسرورة فقط لأني أفعل ما استطيع. لا بد وأنك مررت بتجربة صعبة.»

«أجل... أجل، لقد كانت صعبة.»

«سنتحدث لاحقاً، ربما.»

«أجل.»

عادت السيدة ماكلين بمنشفتين وعباءة بدت وكأنها لعروس... عباءة حريرية بيضاء اللون مع حزام شفاف. تساءلت أدريانا ما إذا كان بريس قد مرن والدته على مساعدته في عملية اغوائه، رغم أن الثياب الأخرى التي احضرتها السيدة لم تكن لتغوي: بنطال قطني زهري اللون وبلوزة مقلمة باللونين الزهري والأبيض. هذا بالإضافة

إلى أن السيدة قدمت لضيفتها فرشاة اسنان وبعض الألبسة القطنية الداخلية الجديدة.

توجهت أدريانا مضطربة نحو الحمام، لكنها ارتاحت عندما رأت أن في إمكانها أن تقفل باب الحمام من الداخل. وقد اتسم الحمام كما غرفة النوم بطابع رجولي، فقد غطى أرض الحمام قطع سجاد صغيرة بنية اللون، ولم تكن هناك أية أدوات تجميل أو أدوات مخصصة لتصفيف الشعر. غير أنها، رغم ذلك، وجدت فرشاة شعر ومشطاً في الدرج تستطيع استعمالهما، وعلى الرف العديد من الشامبو والصابون.

أخذت أدريانا حماماً طويلاً ساخناً، ثم جففت نفسها. وبعد ان نظرت في المرآة الكبيرة، اكتشفت أنها قد انصبغت بلون أحمر قاتم لم تكتسبه من قبل، ليصل هذا الاحمرار الشديد إلى رقبتها عندما تذكرت أنها اكتسبت هذا اللون نتيجة تعرضها لأشعة الشمس طوال النهار عندما كانت عند الممر.

ابتلعت ريقها حين تذكرت مرة ثانية كم كانت خاضعة لرغبات بريس لا، ليست خاضعة. بل متجاوبة جداً تصف طريقة تصرفها أفضل، ولطالما أدهشها تصرفها هذا. لكنها تعرف أنها ستتصرف بالطريقة ذاتها ثانية، كلما طلب منها بريس ذلك.

وقد أزعجها وصولها إلى هذه الحالة، فهي لا تختلف كثيراً عن والدتها. فالأمر الوحيد الذي يمكنها أن تتعلق به هو تصميمها على عدم الزواج من هذا الرجل، أو إنجاب الأطفال منه. أما بالنسبة لقولها انها تريد انجاب طفل منه فقد أصبح مرفوضاً بتاتاً. لكن...

وأخذت عيناها تجول في أنحاء الغرفة. لقد تغير الوضع قليلاً، أليس كذلك؟ فلم يعد يبدو الأمر وكأن بريس رجل فقير، أو كسول أو بخيل.

ماذا عن وفائه؟ لا بد من وجود علاقة بينه وبين تلك الفتاة هيلين... لقد كانت أكيدة من ذلك.

إنقبض صدر أدريانا لذلك. إذ أن والدها كان رجلاً وسيماً، إلى حد كبير مثل بريس، وميزاته لا تختلف كثيراً عنه، فهو يتمتع بجاذبية لدرجة أن النساء يجدنه لا يقاوم. حتى أنه لم يمضِ وقت طويل على زواجه من والدتها عندما بدأ بالخروج ومعاشرة أخريات. فما الذي يضمن لها ان بريس سيكون مختلفاً؟

سمعت صوتاً يجيبها بسرعة وحسم، لا شيء يا عزيزتي، لا شيء.

لقد كانت حمقاء عندما اغوتها فكرة الزواج. حمقاء! إضافة إلى أن بريس قد قرر عدم الزواج منها بأي حال، وأنه رضي بدور الحبيب فقط؟

لكن... يمكن للحبيب أيضاً أن يكون غير مخلص، أليس كذلك؟

اضطربت أدريانا بسبب تلك الفكرة لدرجة ان يديها كانتا ترتجفان بينما كانت ترتدي ثياب النهار التي اعطتها إياها والدة بريس.

خرجت أدريانا بعد ذلك إلى غرفة النوم وراحت تسرح شعرها بقوة عندما سمعت أحداً يقرع الباب.

فقالت في نفسها لا بد وأنه بريس.

لكنها كانت هيلين، تقف والصينية في يدها، ويضيء

وجهها الجميل ابتسامة رقيقة. غير أن ارتياح ادريانا لم يدم طويلاً عندما حضر بريس. أخذ الصينية من يد الفتاة، ودخل الغرفة، ثم قال دون أن ينظر خلفه: «شكراً يا هيلين.»

فأغلقت الفتاة الباب بهدوء وانصرفت.

تابعت أدريانا ما كانت تفعله باضطراب بينما وضع بريس الصينية على المنضدة وبدأ يصب الشاي، عندها قالت أدريانا: «استطيع أن افعل ذلك بنفسي.»

فقال بريس مبتسماً: «إذاً أنت تستطيعين.» ثم وضع إبريق الشاي على الصينية وتوجه نحو السرير الكبير المزدوج وجلس، قائلاً: «لقد نسيت أن ايام مساعدتي لك قد انتهت.»

إنزعجت أدريانا من كلام بريس وتصرفه قليلاً، الأمر الذي يبدو أحمق حقاً. سواء اكانت مغرمة أم لا، أرادت أدريانا أن تمارس دور المرأة المستقلة، الحرة. أليس هذا من حقها؟

ثم قالت: «أجل! لقد كنت مساعدي فقط لأنك لم تكن تعتقد بأني استطيع القيام بأي عمل كما يجب!»

«هذا صحيح.»

سألته بنبرة ساخرة: «هل أنت دائماً واثق من نفسك إلى هذا الحد؟»

إرتفع حاجباه إثر هذا الكلام، لكنها لاحظت أنه كان ينظر إليها نظرات إعجاب. فقامت وصبت لنفسها فنجاناً من الشاي. ثم قالت فجأة بينما كانت تضع الإبريق على الصينية: «قالت لي أمك انك تتوقع مني أن أمضي الليلة هنا.»

«لقد فكرت بذلك فقط لأنك متعبة. إضافة إلى أنه ليس هناك أي سبب يجعلك تسرعين في العودة اليوم، أم أن هناك سبب؟ لقد اعلمت الشرطة. وسيتصلون بعائلتك وشركائك في العمل. وقد اعطيتهم رقم الهاتف في حال أراد أي شخص الاتصال بك شخصياً.»

قالت بارتباك: «أنا... أنا أود الاتصال بوالدتي بنفسي... وآلان...»

«إذا كان عليك ذلك.» انتصب واقفاً وتوجه نحوها ببطء. فأخذت ترجع إلى الوراء لتستند إلى الحائط عندما وصل إليها، لكنه امسك ذقنها فقط، نظر في عينيها وقال: «ان الأمر خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف، أليس كذلك، يا حبيبتي؟»

«أنا... أنا لا استطيع فهم ما تقصد.»

«آه، بلى، أنت تفهمين جيداً ما اقصد. لكن في يوم من الأيام يا ادريانا، ستصابين بصدمة وتكتشفين ان أفكارك المسبقة عن الرجال لا تنطبق على الجميع. وفي خلال هذا الوقت، لن أدع تصرفك المتقلب هذا يزعجني بعد الآن، لأنه مجرد تصرف.» ثم انحنى نحوها وقبلها وقال: «مجرد تصرف.»

حاولت أدريانا جاهدة أن تمنع نفسها من أن تلف ذراعيها حول رقبته وتقبله. شعرت بالغضب من كلامه، وفي نفس الوقت أكدت ما قاله في نفسها. فهذا الكلام قد يحمله على محاولة أن يبرهن لها أنها كانبة. وآخر ما يمكن أن تقبله هو وضع بريس لها في خانة الضعفاء. لكنها لم تكن لتخاف من أن يعرف حقيقة ضعفها. فقد كانت تنظر إليه بعينين تملأهما الكبرياء.

«هل تربطك علاقة حميمة بهذه الفتاة؟»

فتفاجأ من تغير الحديث المفاجيء وقال عابساً: «اتقصدين هيلين؟»

«بالطبع أقصد هيلين.»

«أتتوقعين مني أن أجيب عن هذا السؤال؟»

«أجل!»

«دعيني فقط أقول لك ذلك أنه بينما أنا معك، يا حلوتي، بالتأكيد لن أكون معها.»

سيطر عليها الصمت بعد سماعها إجابته هذه.

«ايرضيك ذلك؟»

«ماذا لو طلبت منك أن تتخلص منها؟»

«ماذا لو طلبت منك. ألا تري آلان ثانية؟»

«أنا... سأحاول.»

«أتمنى ذلك.» ثم تابع بلهجة غاضبة: «هناك هاتف في الردهة، استخدميه متى شئت ولأي وقت.»

«آلان؟»

قال بصوت متفاجيء: «أدريانا؟ أهذا أنت؟»

«أجل... ألم تتصل بك الشرطة بعد؟»

«لا، لقد عدت للتو من أليس سبرينغز. لكن يا إلهي، أدريانا، أين أنت؟ أتعلمين أنه مضى على بحث طائرات الانقاذ عنك أيام؟ هل أنت بخير؟ ماذا جرى؟»

«إنها... إنها قصة طويلة.»

«إذن أخبريني إياها، يا حبيبتي. أريد سماع القصة كلها!»

سرت أدريانا للطافة ولهفة آلان، وراحت تخبره القصة بنفس النبرة المتوترة التي اخبرت فيها والدتها القصة.

«... وكما ترى، يا آلان، أنا بخير حقاً اصطحبني السيد ماكلين معه إلى منزله... في دوفرداونز. أنا... أنا سأعطيك رقم الهاتف.»

سجل آلان رقم الهاتف.

«أعتقد يا أدريانا أنني أعرف ماكلين هذا، هل إسمه بريس؟»

«أجل، أنت تعرفه. فقد اخبرني أنكما التقيتما منذ سنوات عديدة ماضية.»

ضحك آلان وقال: «هذه طريقة لطيفة للتعريف عن خصمنا! فقد اقتحم مكتبي غاضباً ذات يوم قائلاً انني سمحت لسكرتيرتي أن تنصرف باكراً لأنني كنت أعلم أنه على موعد معها، غير أن الفتاة كانت تعلم جيداً أنه يمكن أن يكون عليها العمل لوقت متأخر في ذلك اليوم. إنه شاب وسيم، كما أذكر، لكنه سريع الغضب. إنه زير نساء أيضاً. فقد كانت سكرتيرتي واحدة بين عشرات النساء الصغيرات السن في سيدني اللواتي يخرجن برفقة هذا الراعي عندما ينزل إلى البلدة. ويترك العديد من ضحاياه فيعود فجأة إلى دياره، صدقيني! على أي حال، هذا لا يهم الآن، لعله تغيّر. لأنه كان كذلك منذ سنين خلت. لكن الدنيا صغيرة، أليس كذلك؟»

«أ... أجل.» ثم راحت أدريانا تقول في عقلها زير نساء، تماماً مثل والدها...

«يبدو أنك متعبة جداً، يا أدريانا متى ستعودين إلى سيدني كي أهتم بك؟»

فقالت في نفسها بأسى، يا للقدر.

«أدريانا؟ هل أنت أكيدة أنك بخير؟»

«أجل.»

«أعرف أن الوقت غير مناسب، لكن هل فكرت في إجابة عن السؤال الذي طرحته عليك؟»

«أجل.»

فضحك ضحكة مضطربة وقال: «لم تعجبني طريقة إجابتك.»

«آلان، أنا...»

فتنهد وقال: «أمر غريب، لقد اعتقدت حقاً بأنك ستوافقين حسناً، هنا ينتهي كل شيء.»

«آلان، أرجوك لا تغضب مني.»

«أنا لست غاضباً منك. إسمعي، متى ستعودين؟»

«سأكون في طريقي إلى سيدني غداً.»

«هل تريدينني أن ألاقيك في المطار؟»

«حسناً، أنا لست أكيدة متى سأصل.» لكنها كانت متأكدة من أن بريس سيكون معها ويصر على إيصالها إلى المنزل.

«ما رأيك في أن نتناول العشاء، إذن؟ أم أنك ستكونين متعبة جداً؟»

«أوافق على تناول العشاء.» فهي لن تستطيع الانتظار طويلاً قبل أن تخبر آلان بما لديها.

«الساعة السابعة؟»

www.elromancia.com

«سأكون جاهزة.»

«أنا مسرور جداً لأنك بخير، يا أدريانا. لقد كنت متأكداً أنك كذلك.»

«حقاً؟»

«طبعاً. فأنت لا تهزمين، يا عزيزتي. إذ انك نمرة متوحشة عند اللزوم.»

«آه، عزيزي، أنا مكتئبة جداً!»

«أبداً. أنت مرحة.»

احمر خداها لدى سماعها ذلك، وفي تلك اللحظة ظهر بريس واقفاً عند الباب ونظر إليها نظرة غاضبة.

قالت متلعثمة: «أنا... يجب أن أنهي المخابرة يا آلان. أراك غداً مساءً.»

توجه بريس نحوها وأخذ السماعة منها وأرجعها إلى مكانها ثم قال: «ماذا سيجري غداً مساءً يا أدريانا؟»

ضبطت اعصابها وقالت: «سأتناول طعام العشاء مع آلان، لأشرح له الموقف.»

«هل ستذهبين؟ وما الضير في أن تشرحي له في مكالمة هاتفية؟»

«يستحق معاملة أفضل من ذلك، يا بريس.»

«وماذا عني؟ ماذا استحق؟ أنت تعرفين أنني نويت أن اصطحبك معي إلى هنا وأن نمضي الليلة معاً.»

«أفعلت ذلك؟»

«أجل.»

«إذاً اقترح عليك أنه في المرة القادمة عندما تخطط

للقيام بشيء ما وأنا ضمنه، ان تستشيرني أولاً. أنا لا أحب الاشخاص الذين ينظمون لي حياتي.»

«لكنني لست أي شخص يا أدريانا. فأنا الرجل الذي تحبينه.»

«هذا لا يعني أن تقرر عني يا بريس.»

فنظر إليها نظرة هادئة وغامضة، ثم هز رأسه ببطء وقال: «معك حق.»

تفاجأت أدريانا بهذا الاعتراف لدرجة أنها لم تعد تستطيع الكلام.

ابتسم بريس للدهشة التي رآها على وجه أدريانا وقال: «أرأيت؟ أنا قادر على المحافظة على غروري كرجل. وقادر على تغيير ذلك. كل ما عليك فعله هو أن تقولي لي كيف أفعل ذلك.»

«وهل تغيرت بعد عودتك من سيدني يا بريس؟» قائلة في نفسها انه ما من رجل يتغير. ثم تابعت قائلة: «أم أنك لاتزال زير نساء؟»

بدا الغضب جلياً على ملامحه وقال: «لم ينتظر كارستيرز طويلاً حتى يوقع بيننا، أليس كذلك؟»

فقالت بلهجة نادمة على ذكر الموضوع الآن: «الأمر... الأمر ليس كذلك.»

«إذهبي للعشاء معه. لكنني سأكون في انتظارك حتى تعودين، والويل له إن علمت أنه حاول أي شيء معك!»

ثم رحل بريس وعيناه تشتعلان غضباً، تاركاً إياها واقفة، تحدق به، وقلبها يخفق بشدة.

وبقدر ما كانت أدريانا تكره تملّكه وعدم ثقته بها، لم

تستطع السيطرة على الدهشة التي اعترتها لدى رؤيتها بريس يهتم لأمرها لهذه الدرجة.

عادت ببطء إلى غرفة نومها تساورها هواجس مختلفة، ثم حملت تلك العباءة الحريرية ولامست بها وجهها وراحت تتساءل فيما إذا كان بريس سيأتي إلى غرفتها الليلة.

أو أنه سيكون عليها أن تذهب إلى غرفته.

الفصل العاشر

حطّت طائرة «بيتش بارون» في مطار بانك ستون المحلي الصغير في سيدني بعد الساعة الثانية بقليل من ظهر اليوم التالي، وقد كانت الرحلة طويلة، وبالنسبة لأدريانا، عناء طويل.

لكن الليلة الماضية لم تمض كما كان متوقعاً. فقد نامت أدريانا طوال فترة بعد الظهر، ولم تستيقظ حتى الساعة التاسعة مساءً عندما أحضرت لها السيدة ماكلين طعام العشاء على صينية أخرى. تحدثتا قليلاً، لتكتشف أن هذه السيدة ذكية كإبنها، وتسكن في أديلايد، لكنها غالباً ما تأتي لزيارة ولديها كل في منزله، عندما يكون أحد الولدين في حاجة إلى الراحة لبعض الوقت، إما يذهب إلى المدينة أو لقضاء العطلة في جولة عبر البحار.

بريس، كما يبدو، يمضي عطلته دائماً في التجوال بعد ان يتأكد من حسن سير كل الأمور. لذلك فقد كان هناك اتفاقاً على أن تدير السيدة ماكلين، دوفر داونز في غياب بريس. وعندما أبدت أدريانا دهشتها لقدرة السيدة على إدارة ممتلكات كثيرة كهذه، أجابت والدة بريس بأنها معتادة على ذلك، فلطالما ساعدت زوجها في الإدارة عندما كان لا يزال على قيد الحياة ـ فقد قُتل في حادث أليم منذ تسع سنوات ـ وقد كانت قادرة تماماً على فعل ذلك كلما احتاجها.

قاطع بريس أخيراً هذه الخلوة بين أدريانا والسيدة

ماكلين، التي انسحبت بلباقة تامة. لكن إذا كانت تظن أدريانا أن بريس كان سيمضي الليلة معها فإنها تكون مخطئة تماماً. فبعد أن تحادثا وتعاتبا قليلاً قال لها بريس تصبحين على خير، وأنه متعب جداً وعليه أن يستفيق باكراً صباح غد للسفر. استلقت أدريانا على ذلك السرير الكبير وحدها حتى ساعات الصباح الأولى، وهي تتقلّب، حتى استسلمت أخيراً لخيبة أملها العاطفية.

في الصباح شعرت أدريانا بالتوتر. فقد أزعجها أن يكون مستقبلها عبارة عن ليالٍ قلقة، مضطربة، وكل ذلك بسبب الحالة التي وصلت إليها مع بريس. فهي تلوم نفسها على حبها له لدرجة تجعلها تدمّر ذاتها من أجله، وراحت تفكر في ذلك أكثر بينما قامت لتغيّر ثيابها، ورمت بتلك العباءة على كرسي بخيبة أمل.

كان تناول الفطور يزيد مما تشعر به، إذ أن بريس كان أكثر جاذبية من أي وقت مضى. وقد كان يرتدي قميصاً أبيض بكمين قصيرين وجينزاً ذا قصة جميلة.

حاولت أدريانا كل ما في وسعها كي تبدو طبيعية، لكنها كانت في داخلها منزعجة منه، خصوصاً عندما كان يمنح هيلين التي كان يتورّد لذلك ابتسامة مثيرة، بين الحين والآخر. فالغيرة أمر لم تكن أدريانا معتادة عليه، أو ترتاح له. فهي دلالة على تأثير الحب على الأشخاص ـ ولكن ليس نحو الأفضل!

وقد أراحها قليلاً إصطحاب والدته لهما إلى المدرج، بالإضافة إلى اثنين من الرعاة يريدان التوجه إلى سيدني لقضاء عطلتهما السنوية، وقد منع وجودهما أي حديث

حميم بين بريس وبينها. إذ ان أدريانا كانت في حاجة إلى بعض الوقت كي تسيطر على تلك الأفكار التي تغزو عقلها.

لكن حالما أصبح بريس وأدريانا في السيارة التي كان قد أمر بأن تكون في انتظاره في المطار، أخبرها بأن مشاعرها واضحة للغاية.

«أتريدين إخباري بما يزعجك إلى هذا الحد؟»

«لا شيء، فقط أشعر بأني لا أرغب في الكلام.»

«هذا يناسبني.» ثم هزّ كتفيه وسكت.

وقد أزعج أدريانا رفضها الداخلي للحديث مع بريس أكثر. فها هي تجلس في صمت عميق تراقب المشاهد من نافذة السيارة، بينما راح بريس يدل السائق الأنيق على الطريق نحو المدينة، سالكاً الطرق المختصرة والفرعية بمهارة وخبرة سائق سيارة أجرة. وقد أزعجها شعورها بأنها سمكة خارج الماء عندما كانت في الصحراء، بينما شعر بريس بذلك عندما كان في منزله في المدينة.

فخرقت أدريانا الصمت أخيراً وقالت: «وكم أمضيتَ من الوقت في سيدني؟»

«هياً اسألي، يا عزيزتي. فلطالما أردت ذلك منذ أن استيقظت في الصباح. وبالتأكيد ليس للأمر علاقة بالمكان الذي نتوجّه إليه. والذي في هذه اللحظة، أنا لست أكيداً أنني أعرفه!»

وجدت أدريانا تعليقه هذا مربكاً. إذ ان بريس لم يكن يوماً غير متأكد من أي شيء. بل هي من كانت دائماً مرتبكة، مندهشة، تائهة هذه الأيام. وها هي تبدأ فصلاً جديداً من حياتها دون أي تخطيط مسبق، فهي لا تدري ماذا تفعل،

وكيف تتصرف، بينما مع آلان كانت دائماً أكيدة.

فسألت بيأس: «فقط قل لي لماذا لم تمض ليلة أمس معي؟»

فظهرت دهشة حقيقية في عينيه وقال: «هل هذا كل ما في الأمر؟ عدم قضائي الليلة معك؟» ثم ضحك فرحاً وتابع قائلاً: «يا الهي، أدريانا، لقد ظننت أنني فعلت الصواب! ظننت أنني كنت رصيناً ـ فقد قالت لي أمي انك متعبة. كنت في انتظاري، أليس كذلك؟ تباً، لقد ذرعت الغرفة ذهاباً وإياباً لساعات سدى!»

ونظر بريس إليها نظرة عاتبة أبعدت أي مخاوف كانت تعتريها، حتى أنه سئم منها.

«آه، يا بريس، أنا... أنا اعتقدت أنك ربما لم تعد تريدني!»

«فقط قوديني إلى مسكنك، يا حبيبتي، وسأريك تماماً كم أريدك.»

راح قلب أدريانا يخفق بسرعة، وبعد ان أرشدته إلى موقف السيارة الخاص بها في المرآب تحت بناء شركتها، أحست بدرجة كبيرة من الإثارة. توجّها بعد ذلك بسرعة نحو المصعد الذي سيصعد بهما إلى الطابق العاشر ومن ثم إلى غرفتها. كانا يقفان جنباً إلى جنب، وشعور أدريانا بالإثارة يزداد حتى أنها أخذت تقترب منه أكثر وأكثر إلى أن أصبحا ملاصقين. وقد كانت على وشك أن تمسك يده حين فُتح باب المصعد لتلمع في وجهها أضواء الكاميرات، والصحافيون يتدافعون نحوهما ويسألون.

«آنسة وينسلو، أخبرينا عن الحادث!»

«آنسة وينسلو، هل عرفت أن طائرتك قد ضربها جسم غريب من الفضاء؟»

«كيف يمكن أن تصفي شعورك عندما وجدت نفسك تائهة وسط الصحراء، يا آنسة وينسلو؟»

«ماذا عن الرجل الذي أنقذك، يا آنسة وينسلو؟ السيد ماكلين، أليس كذلك؟ لقد سمعتُ انك أمضيت بعض الوقت معه في الصحراء؟»

لحسن الحظ أنهم لم يعرفوا أن الرجل الذي يرافقها كان السيد ماكلين الذي يسألون عنه، لو كانوا عرفوا ذلك لكانوا انهالوا عليه بالأسئلة كذلك. ومهما يكن، بعد الصدمة الأولى، سيطرت أدريانا على الموضوع دون مشاكل كثيرة، معلنة للصحافة بحسم أنها مرهقة، أنها لا تريد إضافة أي شيء إلى التقرير الذي أعلنته الشرطة، وأنهم إذا تابعوا إزعاجها فإنها ستبلغ الشرطة، وإذا لم يغادروا فإن حارسها الخاص ـ مشيرة إلى بريس ـ سيطردهم بالقوة.

فقال بريس مستغرباً بعد ان دخلا إلى مسكنها وأغلق الباب: «حارسك الخاص؟»

فقالت أدريانا انها لاحظت أنه وللمرة الأولى يبدو شرساً. وأنه أيضاً كان ينظر في أنحاء المسكن الأنيق عاقد الحاجبين وكأنه لا يحب أن يرى دلالات ثرائها. وقد تفهّمت أحاسيسه هذه جيداً. إذ ان معرفة ثرائه لم تكن صدمة مفرحة، لأنها أظهرت ما لم تكن تعرفه أدريانا عنه، وسخرت مما كانت أدريانا تظن أن بريس عليه.

وبما أنها لم تخفِ عنه حقيقتها، فقد دُهشت لرؤيته عابساً. وإحساسها أنه كان يبتعد عنها أنذرها. فعندما كانا

في المصعد، كانا قريبين جداً من بعضهما، ورغبتهما كانت تتغلب على أي شكوك تدور في رأسيهما. لذلك رفضت أدريانا لقاء الصحافيين ثانية، رفضت أن تجعلهم يفسدون أكثر ما تحتاجه في تلك اللحظة.

توجّهت بسرعة نحوه، ثم لفت ذراعيها حول صدره ثم رقبته، وقالت: «وأفضل حارس شخصي.»

لكنها عندما حاولت أن ترفع نفسها لتقبله، تراجع إلى الوراء.

فحدّقت به وقالت: «ما الأمر؟»

«معظم الرجال يحبون القيام بالخطوة الأولى يا أدريانا.»

وحضنها بقوة وراح يقبّلها ثم توقف عن ذلك، وحملها بين ذراعيه وتوجه نحو غرفة النوم.

استفاقت أدريانا وتنهدت. أحست بذراع قوية تمتد تحت كتفيها وتقربها منه. ثم همس في أذنها قائلاً: «هل ناديتني؟»

شعرت برعشة تغمرها وفتحت عينيها لترى أن هناك نوراً يدخل من خلال ستائر غرفة النوم. فجلست بسرعة، وأضاءت النور، لترى أن الساعة تشير إلى السادسة والدقيقة العاشرة. وقالت: «عجباً، أنظر إلى الساعة! عليّ ان أستحم وأبدّل ملابسي، فقد قال آلان أنه سيكون هنا في تمام السابعة، وهو لم يتأخر يوماً.»

فقال بريس وهو مستلقٍ على السرير وذراعاه تحت رأسه: «ليته ما فعل.»

قامت أدريانا من السرير وتوجهت نحو غرفة الملابس

ولبست عباءتها الحريرية، ثم عادت إلى غرفة النوم ونظرت إلى بريس عابسة وقالت: «لماذا تكره آلان إلى هذا الحد؟ بالطبع لا يمكن أن تكون حانقاً من أمر حدث منذ عدة سنوات؟ إضافة إلى ذلك، أظن أنك تسرّعت في الحكم عليه عندما حصل ذلك. إذ انه لم يكن من السهل عليه ان يدير مكتباً وهو لا يزال فتياً. كذلك فإنك تتعامل مع الموضوع وكأن هذه السكرتيرة هي الفتاة الوحيدة في حياتك. لكنك كنت زير نساء!»

لم تكن تريد أدريانا قول تلك الجملة الأخيرة، لكن بما أنها قالتها، فإنها رفضت أن تسحبها. فقد كانت تريد أن تسأله عما سيفعله في سيدني.

نظر إليها نظرة غاضبة، اتكأ إلى جانب واحد وقال: «ما أسرع حماسك في الدفاع عن كارستيرز وفهمه. أليس كذلك؟ ما رأيك لو تمنحين نفسك بعض الوقت كي تفهميني كذلك؟ لقد كنتُ صغيراً أنا أيضاً. بالكاد في العشرين من عمري، وكنت أعيش في منطقة بلا شك جعلتني بعيداً جداً عمّن هم من عمري من أهل المدينة. لذلك فإن نظرة واحدة إلى آلان كارستيرز بينت لي الفرق!»

«صدقيني، لقد كان يدير أعمال والده بكفاءة وقسوة فظيعين.»

ثم رفع عنه الغطاء وقام من السرير ثم تابع قائلاً: «أتريدين أن تعرفي ما لديّ ضد كارستيرز إلى جانب ما تعرفينه؟ سأخبرك. إنها ذكريات يا أدريانا، ذكريات فترة من عمري أفضّل ان أنساها، ذكريات ولد أراد أن يثور ضد كل الظروف المحيطة به، وضد والدٍ تركه يقوم بذلك لفترة قصيرة، رغم أن ذلك كلّفه حياته!»

انزعجت أدريانا لرؤية بريس بهذه الحالة، فقد أحنى كتفيه واكفهر وجهه. لقد بدا محبطاً حتى أن أدريانا جلست بقربه ووضعت يدها على كتفه وقالت مواسية: «لم يكن ذنبك يا عزيزي. أخبرتني أمك ما حدث، لقد كان حادثاً...»

ثم نظر إليها بعينين متألمتين وتابع قائلاً: «ربما... لكنني لا أستطيع التوقف عن لوم نفسي لعدم وجودي معه، أساعده، وليس أتسكّع في المدينة، أتصرّف كمراهق أحمق، ألاحق كل فتاة أراها. مسكين والدي لقد خذلته...»

«لا، لم تفعل، فكما قلت لقد كنت فتياً، لا تكن قاسياً على نفسك إلى هذه الدرجة...» ثم تابعت أدريانا في نفسها بالطبع كان فتياً حينئذٍ.

فوضع يده على خدّها وقال: «أنت تفهمين ما أقصد، أليس كذلك؟» ثم طبع على خدّها قبلة لطيفة وهو يرجع بها إلى السرير.

«آه يا بريس!»

فتوقف عن تقبيلها وقال: «لا تذهبي إلى العشاء مع كارستيرز، إلغي الموعد... إتصلي به.»

فتجمدت أدريانا.

وهو أيضاً توقف عما كان يفعله.

فقامت أدريانا عن السرير، وارتدت عباءتها بيدين مرتجفتين. مفكرة أن بريس يحاول السيطرة عليها من خلال تقبيلها مما جعلها تثور ضده، لتقول بعد ذلك: «لا تفعل ذلك لي ثانية. أبداً!»

فسأل بصوت متعب: «أفعل ماذا؟»

«أن تحصل على ما تريد بواسطة... بواسطة... تباً يا

بريس!» ثم ضربت قدمها بالأرض وقالت: «أنت تعرف ما أتحدث عنه!»

تنهد بريس ثم انحنى إلى حيث كانت ثيابه منثورة قرب السرير. ارتدى ثيابه بسرعة ملحوظة وعندما وصل إلى عتبة غرفة النوم، ركضت أدريانا نحوه، أمسكته من ذراعه وقالت: «ماذا... إلى أين أنت ذاهب؟»

«إلى منزلي.»

«لكن... لكن...»

صرّ بريس أسنانه وقال: «لم أكن أحاول السيطرة عليك يا أدريانا. ليس بالطريقة التي عنيتها أنت. وإذا كنت تعتقدين أنني سأجلس هنا أنظر إليك وأنت تتهندمين للخروج مع ذلك الرجل، فلا بد أنك مجنونة!»

فنظرت إليه، غير قادرة على استيعاب هذا التطور غير المتوقع بسرعة تمكّنها من الرد عليه.

«اسمعي، لطالما قلت انني لن ألعب ألاعيب معقدة، لكن ذلك غير صحيح يا أدريانا. فأنا ألعب واحدة من تلك الألاعيب. لعبة يائسة.»

«ل... لعبة؟»

«هذا صحيح. لقد كنت أتظاهر بأنني لا أريد الزواج منك. لكن هذا جنون، فأنا أريد ذلك. ففكرت، أنه إذا منحتك بعض الوقت، يمكنك تدريجياً أن تفهميني. وخطرت لي فكرة مجنونة، أتعلمين، أن مشكلتك هذه هي مؤقتة ونتيجة تربيتك. فأخذت أقول لنفسي انها ستتجاوزها، سترى أنني لست كوالدها. لكنني الآن لست أكيداً، لا أعتقد أنك ستتغيرين، يا أدريانا ـ مشكلة عدم ثقتك بالرجال

ودوافعهم ثابتة في داخلك. إذاً أعتقد أن أفضل شيء أستطيع فعله هو أن أخرج من هنا، ما زلت أستطيع فعل ذلك!»

ولكن ما أن بدأ بالحركة تمسّكت به بقوة وقالت: «لكن لا يمكنك الذهاب يا بريس. لا تستطيع!»

فردّ بعصبية شديدة: «طبعاً أستطيع. وأنا أحذّرك، لا تأتي إليّ قبل أن تغيّري رأيك بشأن الزواج مني وإنجاب أطفال مني!» وبعد أن أنهى تحذيره لها، خرج وصفق الباب.

حدقت أدريانا بالباب لوقت طويل، غير قادرة على التفكير أو الحركة. لكنها راحت بعد ذلك تجول في الغرفة ذهاباً وإياباً، أحاسيسها مضطربة، وعقلها يتصارع مع قلبها بجنون.

أخذ عقلها يقول لها دعيه يذهب، فقد كنت تعلمين أن زواجكما أمر ميؤوس منه. ميؤوس منه! فهو يريد الكثير. يتوقع الكثير! إذا تزوجت منه ستصبحين يائسة... يائسة.

لكن قلبها صرخ قائلاً لكنك يائسة الآن.

فرد صوت متهكم إذاً ماذا؟ ستتجاوزين ذلك. مع الوقت... وكذلك بريس. وفي وقت أسرع مما ستحتاجينه أنت، يا عزيزتي. كم برأيك سيستغرقه قبل أن يكون مع هيلين؟ بما أنه زير نساء فإنه سيكون دائماً كذلك!

صعقت أدريانا لدى سماعها هذه الجملة الأخيرة.

توقفت أدريانا عن الذهاب والإياب في الغرفة ورمت بنفسها على الأريكة، والدموع تنهمر من عينيها. لكن صوت رنين جرس الباب جعلها تقفز واقفة على رجليها، وعيناها ترمشان بسرعة، فأوّل ما خطر في بالها هو أن بريس قد

عاد ورفض قلبها أي احتمال آخر. اختفت الدموع بينما كانت متوجهة نحو الباب، وملامح الأمل والسعادة بادية على وجهها.

كان آلان يقف عند عتبة الباب، وعيناه الزرقاوان تعبّران عن دهشته ما أن التقتا عيني أدريانا. عبس آلان عندما وجدها غير جاهزة للخروج وقال: «لقد اتفقنا على اللقاء عند الساعة السابعة، أليس كذلك؟»

أخفضت أدريانا رأسها وفعلت الشيء الوحيد الممكن. أجهشت بالبكاء.

دخل آلان إلى المنزل بكل لباقة، أغلق الباب، ثم حضنها قائلاً: «إهدأي، إهدأي، يا حبيبتي.» ثم أخذ يربت على شعرها وتابع قائلاً: «هل كان الأمر بهذا السوء في الصحراء؟ إهدأي، إهدأي... سيكون كل شيء على ما يرام الآن. أنا هنا...»

أبعدت أدريانا آلان عنها، والدموع تنهمر على وجهها، وانفجرت قائلة بيأس: «لا، لا، الموضوع ليس كما تعتقد بتاتاً! ألا تفهم؟ لا يمكنك أن تجعل أي أمر على ما يرام. بريس هو الشخص الوحيد القادر على فعل ذلك. أنا أحبه... وأحتاج إليه، و... وهو يحبني... أعتقد. يريدني أن أتزوج منه، لكنني لن أفعل... لا أستطيع! لذلك تركني و... و... آه، يا الهي، لا أستطيع أن أعيش من دونه!»

حتى لا يزيد آلان الموضوع تأزّماً، تعامل مع ثورتها برباطة جأش ملحوظة، رغم توتره الواضح، ثم قال: «آه، الآن فهمت! السيد ماكلين فعل أكثر من مجرد إنقاذك، أليس كذلك؟»

جلست أدريانا على الأريكة، ووضعت رأسها بين يديها وقالت: «آه، آلان، أنا آسفة للغاية. لم أقصد أن أثور عليك هكذا.»

فوضع آلان يده على كتفها وقال: «لا عليك، يا حبيبتي. لا عليك. كلنا نجعل من أنفسنا أغبياء عندما نقع في الحب. صدقيني، أنا أعرف.»

جعلت نبرة الألم في صوت آلان أدريانا ترفع عينيها الباكيتين وتنظر إليه قائلة: «هل وقعت في الحب أنت أيضاً يا آلان؟»

فظهر الألم في عينيه قبل أن يتوجه ليحضر شراباً ما ويقول: «سأحضّر لك كأساً من الشراب. فيبدو لي أنك تحتاجين اليه. وأنا كذلك.» وراح يحضّر الشراب بمهارته المعتادة، ليعود بعد ذلك ويناولها الكأس ويجلس على إحدى الأرائك الكبيرة، شاحب الوجه.

تنهد تنهيدة غريبة وسألها: «تسالينني إذا أغرمت؟ من الصعب التصديق أنه يمكن لإنسان أن يقع في غرام فتاة في الثامنة عشرة من عمرها. إذ ان ذلك أقرب ما يكون إلى النزوة.»

ثم جاء دور أدريانا لتحدّق به، وقالت: «أنت تقصد...»

«من هي تحت وصايتي. أجل... إيبوني.» ثم عبس وارتشف جرعة كبيرة من الشراب وقال: «لا أستطيع أن أفهم ذلك. لقد مضى على إحساسي بها ثلاث سنوات، فتاة لطيفة هادئة. وفي عطلتها الأخيرة أقامت لها والدتي حفلة عيد ميلادها الثامن عشر، فظهرت مرتدية ذلك الرداء الحريري الأبيض، وفجأة أحسست أن كل ما أريد فعله هو...» ثم ارتعش.

صمت الإثنان للحظات قليلة. كان خلالها عقل أدريانا

مليئاً بالأفكار إلى ان توصّلت إلى استنتاج، فسألته: «آلان، هل لهذا السبب طلبت الزواج مني؟»

«أجل. ستنهي دراستها بعد شهر. وستبقى في منزلي بعد ذلك دائماً. لذا فكرت...»

«... انه سيقلّ الخطر تجاه الفتاة إذا كان لديك زوجة إلى جانبك.»

«أجل.»

خيّم صمت غريب عليهما إلى ان استأنف آلان الحديث قائلاً: «أنا آسف يا أدريانا، حقاً آسف. لم أفكر في ان أستغلّك. فأنت أعزّ أصدقائي. وأعتقد أنني معتاد على اللجوء إليك عندما أشعر بالضيق. أتذكرين الليلة الأولى التي شاركتني فيها غرفتي؟»

«أجل.»

«لم يكن ذلك بعد مأتم والديّ ايبوني بوقت طويل. فقد شعرت أني... تائه بعد حضور دفنهما. شعرت أني تائه و... وحيد. فلسنوات خلت لم أقم بشيء سوى العمل، بالإضافة إلى بعض الاهتمامات الأخرى. لقد تحوّلت حياتي الشخصية إلى قضاء ليلة هنا أو هناك مع نساء بالكاد أعرفهن. فجأة أردت... لا، احتجت... إلى شيء أكثر. شيء محترم ودافيء ومميز. لقد منحتني أنت هذا الشيء، يا أدريانا، ولأجل ذلك سأكون ممتناً لك إلى الأبد. لن أندم على علاقتنا أبداً. أتمنى ألا تفعلي أنت أيضاً.»

فنظرت إليه وشعرت عندئذٍ كم هو صادق في ما قاله، فقالت: «آه، آلان، لماذا لم أغرم بك، عوضاً عن ذلك الرجل البدوي المجنون؟»

فضحك ضحكة قصيرة وقال: «لربما قلت أنا كذلك، يا حبيبتي. لماذا لم أغرم بك، عوضاً عن...» ثم توقف فجأة حين أدرك ما كان يقول.

عبست أدريانا بينما كانت ترتشف قليلاً من الشراب. فهي تعرف آلان، وتعرف أي نوع من الأشخاص هو. انهما متشابهان إلى حد كبير، فكلاهما جدّي، يعمل بكد. وإذا كان قد أحسّ بانجذاب قوي نحو الفتاة، فبالتأكيد كان هناك ما هو أكثر من رغبة، تماماً كما هو الحال بينها وبين بريس.

«أعتقد أنك مخطىء يا آلان. أعتقد انك تحب ايبوني، لكن رغبتك فيها قوية جداً لدرجة أنها تغلب على هذه الأحاسيس الرقيقة والعميقة. أعرف عما أتحدث، لأن هذا ما فكرت أنني أحسّه نحو بريس إلى أن أدركت كم أحبه. فالحب إحساس مخادع يحتال علينا لأننا أحياناً نخاف منه، نخاف من المخاطر التي يتطلب منّا خوضها.»

ترددت بعد ذلك في المتابعة، فقد امتلأ قلبها بالخوف مما قالته للتو. فمن كانت هي لتتكم عن المجازفة؟ فهي لم تكن قادرة على القيام بأية مجازفة؟ ادعت أنها تحب بريس. ادعت أنها أحبت هذا الرجل فعلاً! لكن الحقيقة أنها لم تكن تمتلك الشجاعة لإعلان حبها...

«لقد تغيّرت يا أدريانا. لقد اكتشفت العاطفة. أكاد أحسد بريس ماكلين.»

هزت السخرية في جملته الأخيرة مشاعرها. فنظرت إلى الكأس وراحت تحرك ما بقي فيها بحركة دائرية وقالت: «لما كنت فعلت ذلك لو كنت مكانك. فأنا لا أصلح لأي رجل.»

«أنا لا أوافقك الرأي. فأنت تتسمين بصفات يتمنى كل

الرجال توفرها في شريكات حياتهم. لماذا لا تلحقين به؟ حاولي تحقيق الأمر. إذا كان في استطاعة أحد ذلك، فهو أنت. فأنت عنيدة جداً يا أدريانا، عندما تريدين أن تكوني كذلك.»

أعادت كلماته هذه وللحظات قصيرة الأمل إلى قلبها. لكنها هل تجرؤ على فعل ما اقترحه؟ هل هناك من طريقة لتسوية الأمور بينها وبين بريس؟ لو هناك ثمة طريقة، لما كانت هنا تفكر. لقد كان بريس من نوع الأشخاص الذين لا يغيّرون رأيهم بشأن فكرة ثابتة في رأسهم. والدليل على ذلك، الدرجة التي يكره بها آلان بعد كل تلك السنين!

وفجأة خطرت فكرة ببال أدريانا، فنظرت في عيني آلان وسألته: «أتمانع في أن أسألك سؤالاً ليس له علاقة بما كنا نتحدث عنه؟»

فرفع أحد حاجبيه مستغرباً وقال: «مثل ماذا؟»

«لماذا لم تذهب إلى جنازة والدك؟»

فحدّق بها وقال: «إنه سؤال غريب!» شرد للحظات ثم قال: «آه، اعتقد أنني فهمت... لم يحبني ماكلين قط. ولا حتى سكرتيرتي.» ثم ابتسم ابتسامة حزينة وقال: «صدقيني، لقد أردت الذهاب لحضور جنازة والدي، ولو كنت أستطيع الرجوع من هناك في الموعد المحدد لكنت ذهبت، لكنني كنت في الحادية والعشرين من عمري، ولم أكن أمتلك الثقة لأقول للمصرف أن ينتظر.»

فأعادت أدريانا مندهشة: «المصرف؟»

«المصرف الذي حجز على أملاك العائلة. فقد أصرّوا على إرسال أحد محاسبيهم للتحقيق في دفاتر الحسابات

فهم لم يستطيعوا أن يصدقوا بأنني استطعت تسديد كل تلك الديون خلال تولّيّ والدي أمور العمل قبل أن يمرض. فلم أستطع أن أتملّص من الموعد ولا بأية طريقة، لذلك فقد تمت مراسم الجنازة من دون حضوري، رغم اني حزنت وبكيت كثيراً مساء ذلك اليوم. فأنا لم أكن حقاً ذلك الوغد القاسي القلب كما يقولون. فقد كنت فقط شاباً يواجه ضغطاً كبيراً. هل ذلك يعيد إليّ اعتباري بنظرك قليلاً؟»

فقالت مؤكدة: «أنت لن تحتاج يوماً إلى ذلك!»

«ولا حتى الآن بعد ما أخبرتك عن ايبوني؟»

انقبض قلب أدريانا قليلاً، لكنها حاولت البقاء طبيعية وقالت: «ولا حتى الآن. فكما قلت، يا آلان، نحن أصدقاء. والأصدقاء يفهمون ويسامحون بعضهم البعض.»

فابتسم وقال: «حسناً، يا صديقتي. إذن هل لي أن أقترح أمراً؟»

«بالطبع.»

«أعتقد أن موعد العشاء قد ألغي، لكن لماذا لا ترتدين ملابسك وسأرسل في طلب الطعام إلى هنا. فأنت تبدين في حاجة إلى ذلك.»

انتصبت أدريانا واقفة، ثم عادت فسألت: «آلان، أنت تعرف أنه لا يمكن أن يكون بيننا أية... علاقة حسية، أليس كذلك؟»

فابتسم ابتسامة رقيقة وقال: «طبعاً. فأنت مغرمة، وأنا أعرف أنك لن تخوني ذلك الحب. وأنا لن أطلب منك ذلك أبداً.»

استدارت أدريانا وتوجهت نحو الحمام عابسة الوجه.

وراحت تسأل نفسها أليست تقوم بخيانته الآن؟ ألم تخنه في اللحظة التي تركت فيها بريس يرحل من هنا ومن حياتها بمنتهى السهولة، في اللحظة التي اختارت عدم اللحاق به؟

فقال صوت في داخلها، لا زلت تستطيعين اللحاق به بالطبع، هذا يعني أن تتخلي عن كل شيء تحبينه. كل شيء عملتِ من أجله...

لا شعورياً تراجعت لمجرد التفكير في الأمر. ثم ارتجفت وقالت في نفسها لا أستطيع. حقاً لا أستطيع!

www.elromancia.com

الفصل الحادي عشر

حلّقت أدريانا بطائرتها عدة مرات فوق دوفرداونز قبل أن تحط في مدرجها الخاص، ثم تتوجه نحو موقف الطائرات. أطفأت محرك الطائرة وهي تتنهد، لتقول في نفسها في تلك اللحظة أن الاقلاع... والهبوط.. كانا مزعجين كالأيام التي تمر بها.

فأدريانا لم تشعر يوماً بهذا التوتر وهي تقود الطائرة... أما الحادث فإنه لم يكن بسبب إهمال منها، رغم كل شيء... لكنها كانت مضطربة منذ اللحظة التي اقلعت فيها من مطار داروين لتشعر بالراحة بعد هبوطها بسلام.

لكن هبوطها أدى بها إلى مشكلة أخرى. المدرج خال، لم يظهر أحد ليرى من الذي وصل لتوه. فقد افترضت أن يكون هناك شخص يقودها إلى المنزل، لكن أحداً لم يظهر. وما أن فتحت أدريانا باب الطائرة، حتى ضرب وجهها هبوط حرارة المحرك.

تمتمت قائلة: «أرتدي ثياباً خفيفة كما في المرة السابقة.» ثم نظرت إلى فستانها الأصفر وحذائها الأبيض ذي الكعب المنخفض، عليها المشي لمسافة طويلة، وتحت حرارة شمس عالية حتى تصل إلى أعلى التلة حيث المنزل.

وفي تلك اللحظة رأت آلية زرقاء تقترب مثيرة وراءها غيمة من الغبار.

فتساءلت في نفسها أيمكن أن يكون بريس على تلك

الآلية؟ ثم اعتراها الاضطراب لمجرد تفكيرها في ذلك.

فهي لم تكن تنوي ابداً أن تأتي إلى هنا. إذ انها بعد رحيل بريس اتخذت قراراً لن تتراجع عنه ابداً وهو أنها ستحاول أن تنساه، أن تخرجه من قلبها ومن عقلها.

ولربما منعت نفسها من التنفس أيضاً. فقد أمضت عشرة أيام لاستيعاب ما حصل، عشرة أيام من القلق والعذاب، عشرة أيام من الوحدة واليأس.

حاولت أن تباشر حياتها كالمعتاد. حاولت أن تلهي نفسها بالعمل.

لكن كل ذلك لم يجد نفعاً. فقد مرت معظم الأيام وهي تتأمل صفحات بيضاء، عقلها عاجز عن التفكير، رغم أنه كان يجب عليها أن تبدأ بتحضير تصاميم الأزياء لشتاء العام المقبل.

كم مرة حاوت الاتصال ببريس؟ فقد طلبت الرقم ذات مرة، لكنها قطعت المخابرة قبل أن يرد أحد على الهاتف. فبدأت يداها ترتجفان، على أي حال ماذا كان يمكن أن تقول له؟ أنا أحبك يا بريس؟ أشتاق إليك، لكنني ما زلت لا استطيع أن أعيش نمط الحياة الذي تريدني أن أعيشه؟ وماذا ستكون نتيجة ذلك؟

لذلك فإنها لم تجر أي مخابرة.

لاحظ جميع من يعمل معها في المكتب كم كانت تبدو متوترة ومتعبة، فاقترحوا أن تأخذ عطلة قصيرة كي ترتاح. وقد طمأنها الجميع بأنهم يستطيعون العمل من دونها لبعض الوقت، الأمر الذي لم يكن لديها أدنى شك فيه. ويبدو أن كل شيء كان يسير على مايرام خلال غيابها في الصحراء

نتيجة اتخاذ مساعدتها القرارات اللازمة في العمل. فلطالما عينت أدريانا اشخاصاً ممتازين كانوا دائماً ينتظرون الفرصة لإبراز ما يستطيعون القيام به.

لذلك كان على أدريانا أن تعترف بأنها لن تستطيع المتابعة على هذا الشكل، أن تعمل دون نشاط أو حماس. إذ أن بعد بريس عنها وحبها له أبعدا السعادة من حياتها. ماذا سيجري في حال تخلت عن عملها؟ فهي إن تابعت العمل كما هي حالها الآن، فإنها سرعان ما تفقده!

لكنها حتى عندئذٍ لم تستطع الاتصال به هاتفياً فربما كانت خائفة من أن يرفض الكلام معها، أن يكون لايزال غاضباً. ومهما كان السبب، فقد أحست أن من الأفضل أن تأتي إليه، وتواجهه، أن تقول له انها غيرت رأيها، أنها تريد الزواج منه، رغم أنه كان لا يزال عندها بعض الشكوك في تحقيق سعادتهما الدائمة. ولم تكن فكرة إنجاب الأطفال هي التي تخيفها الآن، بل نمط الحياة التي يتوقع بريس أن تعيشه كزوجة.

وبالطبع كان لايزال هناك ذلك الشك بألاّ يكون مخلصاً لها دائماً، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لا تعتقد أدريانا أنها تستطيع تحمله.

لكنها ربما تكون مخطئة في هذا الشأن. ربما، مثل آلان، تغير عما كان في السنين الخوالي. ألم يقل لها يوماً عندما كانا في دوفر داونز انه يمكن أن يتغير وأنه ما عليها سوى أن تقول له كيف؟ فتمنت ذلك. على أي حال، كل ما كان عليها فعله هو أن تشرح شكوكها ومخاوفها لبريس، وبعد ذلك يصبح الأمر منوطاً به؟

لكن بما أن تلك اللحظة حانت، فقد ساورتها شكوك عديدة. فهو لم يتصل بها، أم أنه اتصل؟ لم يراسلها أيضاً. لعله قرر أن ينهي وجودها من حياته إلى الأبد. ربما كانت تهدر وقتها سدى. ربما لا يريدها بعد الآن.

ترجلت من الطائرة، وهي تحمل حقيبة وضعت فيها بعض اغراضها، وراحت تمشي ليتضح لها اكثر الاتجاه الذي كانت تعبره الآلية عند جانب الطريق المعبدة. لكن بسبب نافذة الآلية المغبرة، لم تستطع أدريانا أن ترى من يقودها إلى أن أصبحت قرب النافذة الخلفية للآلية.

فتنفست أدريانا الصعداء عندما رأت السيدة ماكلين تقود الآلية مرتدية فستاناً جميلاً وتنظر إليها، لتقول بعد ذلك: «اصعدي! لقد تركت جهاز التكييف يعمل من أجلك.»

فصعدت أدريانا بسرعة وجلست تتمتع بهواء التكييف البارد وقالت: «شكراً لأنك أتيت للقائي.»

«لا عليك. فنحن دائماً نلاقي من يأتي إلى هنا. بريس في الحظيرة، أخشى أنه لن يعود قبل ساعة أو اثنتين.»

فنظرت أدريانا إلى هذه السيدة متسائلة ماذا تعرف عما جرى بينهما؟ ثم قالت: «هل... هل أخبرك بريس عما حصل بيننا؟»

فعبست السيدة وقالت: «عن ماذا؟»

«عما جرى في اليوم الذي أوصلني فيه إلى سيدني... فقد حصل بيننا... اختلاف في وجهات النظر.»

«الآن فهمت... هذا يفسر الأمر، إذن.»

«يفسر ماذا؟»

«حالة بريس. فهو لم يكن على طبيعته المعتادة طوال

الأسبوع الأخير، لقد اعتقدت أنه يفتقدك ليس أكثر. فهو لم يخبرني بأنكما اختلفتما أو أي شيء من هذا القبيل.»

خالج أدريانا شعور بالأمل. وراحت تقول في نفسها إذن بريس كان مكتئباً أيضاً. فمن الواضح انه لم يتمكن من الغائي من حياته بسهولة كما لم استطع أنا. رغم أن سوء مزاجه قد يكون نتيجة جرح كبريائه.

ثم سألت السيدة بتردد: «اتعتقدين... أنه سيكون مسروراً لرؤيتي؟»

إن تردد السيدة ماكلين في الإجابة غلب تحفظها، فقالت: «لا يحب أن يراه احد وهو في حالته هذه.» محاولة أن تجعل هذه الجملة تنوب عن إجابتها. لكنها ابتسمت بعد ذلك وقالت: «لكنه، لا يحب أن يبقى غاضباً من الفتاة التي يحبها.»

«هل قال لك انه يحبني؟»

«ليس عليه أن يفعل ذلك. فالأم تعرف إذا ما كان ولدها مغرماً. لقد عرفت ذلك في اللحظة التي اصطحبك فيها إلى هنا.»

«آه!»

فابتسمت الأم بينما كانت تدير محرك الآلية وقالت: «لطالما كنت أغيظ بريس بقولي له انه لم يحضر اطلاقاً أية فتاة إلى هنا لأتعرف إليها. فيقول لي بحسم انه في حال فعل ذلك، فإنها ستكون الفتاة التي يريد الزواج منها.»

شعرت أدريانا بقلبها يخفق بسرعة. ثم قالت في نفسها إذاً لهذا السبب كان بريس ووالدته يبتسمان ذلك اليوم!

انعطفت السيدة ماكلين إلى الطريق الوعرة المؤدية إلى منزلهم.

تنهدت أدريانا.

فنظرت السيدة بإمعان وقالت: «ألا تريدين الزواج من إبني؟»

«عليّ أن أكون صريحة معك. في بادىء الأمر لم أكن أريد. لم أكن أفكر في أن الزواج هو ما أريده منه.»

«هل بريس طلب منك الزواج؟»

«حسناً، أجل... لكن...»

«يبدو وأنك تظنين أن زواجك من بريس أمر عليك الحذر منه.» ثم تابعت السيدة مدافعة: «أريدك أن تعلمي أنه رجل رائع وأنا لا أتكلم عنه من منطلق أني والدته، اسألي أياً من الرعاة. اسألي أي شخص يعيش هنا! آه، لقد مر بسنوات حرجة عندما ظن أنه لا يريد أن يرى ولا حتى بقرة أخرى، فتخلى عن العمل هنا. ثم ذهب إلى سيدني ليجرب الحياة هناك. وقد سمح له والده بذلك، قائلاً انه أمر مفيد له أن يرى كيف يعيش الجزء الآخر من البلد، لأن ذلك سيمنحه قدرة أكبر ليقرر ما يناسبه وما لا يناسبه. وعندما قتل والده، عاد مسرعاً ليتحمل مسؤولية العائلة برضى تام وليس مكرهاً. وقد اخبرني كم تعلّم من حياته هنا. فهي ليست حياة سهلة...»

وفجأة سكتت. ثم نظرت إلى أدريانا وقالت: «أهذا ما يقلقك؟ الحياة التي عليك ان تعيشيها إذا ما تزوجت من بريس؟»

«ليس هذا بالضبط.»

«هاه! لم أكن اعتقد أنك فتاة جبانة. حسناً، إن الأمر يحتاج إلى بعض التنازلات، لكن هذا لا يعني انك ستكونين فقيرة. وبما أنك تستطيعين قيادة الطائرة، إذن يمكنك

الذهاب إلى المدينة متى تشائين، فبريس لا يتأخر عن فعل شيء من أجل المرأة التي يحبها. حتى أنه ليس عليك أن تتخلي عن عملك. رغم أنه يمكنك القيام ببعض الأعمال وأنت هنا. ألا يمكن ذلك؟»

فحدّقت أدريانا بالسيدة ماكلين وراحت تسأل نفسها لماذا لم تفكر بذلك؟ فاعترتها موجة عارمة من الفرح. حتى أن كل التصاميم السابقة في عقلها اختفت، ليظهر مكانها صور للأيام التي امضتها في الصحراء لتوحي لها بأفكار جديدة.

فقد يمكن لها أن تبدأ مجموعة تصاميم جديدة، مستخدمة اقمشة لها تلك الألوان التي رأتها في الصحراء... لون الرمل الأحمر، لون الصخور البرونزي والأصفر، لون السماء الأزرق الفاتح ولون الممر الأخضر الغامق. وهناك كذلك لونا الببغاء الأسود والبرتقالي.

ستكون الأزياء باردة، خفيفة، وفضفاضة. آه، عندها أفكار لا تنتهي!

ثم تابعت السيدة كلامها لتنقل أدريانا بذلك من عالم الأحلام التي حلقت بها إلى أرض الواقع: «بالطبع يمكن أن تتغير بعض الأمور عند انجابكما الأطفال. فعندها سيكون عليك البقاء لوقت اطول في المنزل، لكن حتى عند حصول ذلك لن تكوني وحيدة. فأنا ساكون معك، اتعلمين فأنا اتمتع بصحة جيدة. سآتي وأهتم بأحفادي متى شئت.»

تفاجأت أدريانا بهذا العرض السخي في بادىء الأمر لكنها بعد ذلك تنهدت وهزت رأسها موافقة. ثم راحت تقول في نفسها كم كانت حمقاء لتفكر أن كل الأمهات هن كوالدتها! إذ أن معظم العائلات تتشاركون أعباء العمل

سعداء، جاعلين بذلك عبء الاعتناء بالأطفال ليس فقط عملاً يمكن تحمله، لكن على الأرجح ممتع.

ثم تابعت والدة بريس قائلة: «وهناك أيضاً هيلين. فهي لطيفة مع الأطفال كسائر النساء في دوفرداونز. رغم أني أعتقد أن هيلين ستنجب طفلها قريباً، بما أنها ستتزوج من بيت الشهر المقبل.»

فسألت أدريانا بصوت أجش: «هيلين ستتزوج؟»

«وقريباً جداً، فهي لم تحتمل منذ أن اغرمت، كما أنها حائرة ومحمرة الوجه طوال الوقت.»

«إذن ليس هناك من علاقة بينه...» لكنها لم تستطع أن تكمل وتعبر عن مخاوفها. ثم ارتسمت ابتسامة غريبة على وجهها وراحت تقول في نفسها ان بريس خدعها في ما يخص هيلين. تستطيع ان تفهم كل شيء بوضوح الآن. فابتساماته لهيلين كانت مجرد حيلة ليثير غيرتها. ولكم نجح في ذلك!

«أتعني هذه الابتسامة أنك توافقين؟»

فنظرت أدريانا إلى والدة بريس وابتسامة عريضة ترتسم على وجهها وقالت: «إذا كان يريد ذلك.»

فردت السيدة بابتسامة مماثلة وقالت: «إذا لم يرد سأسلخ جلده حياً!»

فجلست أدريانا مرتاحة، تشعر بسعادة أكبر، لكن ليس بقدر والدة بريس. فقد كان أمراً مريح لسيدتين تحبان بريس أن تتحدثا عنه وتخططا له حياته. لكن هل سيكون له الأفكار ذاتها؟

الفصل الثاني عشر

وصل بريس إلى المنزل بعد الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر وتوجّه مباشرة نحو غرفته، دون أن ينتبه لأدريانا التي كانت في المطبخ تنتظر وصوله بفارغ الصبر. فقد كانت تمضي الوقت بصحبة هيلين بينما كانت السيدة ماكلين تأخذ قيلولة بعد الظهر، وقد وجدت أدريانا الفتاة لطيفة جداً فقط لو أنها تتخلص من حيائها.

قالت هيلين عندما سمعت صوت الباب الأمامي يُصفق: «ها قد وصل السيد ماكلين الآن. فهو دائماً يستحمّ أولاً، ثم يدخل إلى غرفة المطالعة ويقضي طوال بعد الظهر فيها.»

فسألت أدريانا محاولة إيجاد سبب لتدخل إلى غرفته: «أتأخذون إليه فنجاناً من الشاي أو القهوة أو أي شيء؟»

فهزت هيلين رأسها وقالت: «لا فهو عادة يشرب عصير البرتقال. هناك ثلاجة صغيرة في غرفة المطالعة.»

«آه...»

«لماذا لا تنتظرينه هناك على أي حال؟ إلا إذا كنت تفضّلين الدخول إلى غرفة نومه؟» تورّد وجه هيلين لدى قولها الجملة الأخيرة.

فابتسمت أدريانا وقالت: «لا، غرفة مطالعته ستفي بالغرض. أرشديني إليها، هلا سمحت؟»

اتسمت هذه الغرفة أيضاً بطابع رجولي، اذ يغطي

أرضها الباركيه وجدرانها خشبية. وألوان أثاثها كألوان الخريف. وهناك مكتب كبير موضوع فوق سجادة ذات لون قاتم، المكتب موضوع بين نافذتين طويلتين تواجهان المنظر الخارجي، وكرسي جلدي فخم بنيّ اللون موضوع خلف المكتب، وأريكتان كبيرتان على جانبي المكتب، إحداهما ذات لون بني قاتم، والأخرى بلون الخردل الذهبي. هذا بالإضافة إلى جهاز كمبيوتر حديث موضوع عند حافة المكتب، وجهاز فاكس عند الحافة الأخرى، لكن وجود هذين الجهازين لا يتناسب مع ديكور الغرفة القديم.

أمضت أدريانا الوقت في انتظار بريس وهي تتفحّص الكتب المتنوعة في مكتبة بريس القديمة المتينة. كان هناك الكثير من الكتب حول موضوع المواشي وإدارة المزارع والعديد من الكتب الحديثة الخاصة بمواضيع تجارية. فمن الواضح أن بريس من الرجال الذين لا يدعون الزمن يسبقهم.

كانت تقف قرب أحد النافذتين، تنظر إلى المشهد الخارجي، متوترة الأعصاب، عندما فُتح الباب فجأة. ولم يرها بريس إلا حين ذهب ليغلق الباب. فتجمدت يده على قبضة الباب ووقف يحدّق بها.

حدّقت أدريانا به كذلك، لأنه لم يكن يرتدي سوى بنطال رياضة قصير أبيض، وقميص بيضاء بكمين قصيرين مفتوحة حتى الخصر.

فقال مستغرباً: «أدريانا!»

«بريس...» ثم ارتسمت على وجهها المتوتر ابتسامة رقيقة.

استطاعت أن ترى يده ما تزال تمسك قبضة الباب. وعيناه محدّقتان بها وهو ينظر إليها من شدة المفاجأة من رأسها حتى أخمص قدميها وبالعكس.

فقالت في نفسها آه، لم يعد يريدني.

ثم حاولت البدء بالكلام فقالت: «بريس، أنا...»

شدّ بريس على أسنانه وصفق الباب وقال: «ماذا تفعلين هنا يا أدريانا؟ صدقيني حين أقول لك اني لن أسمح لك بأن تلعبي بعواطفي ثانية، وأنا أعني ذلك!» ثم توجه نحو المكتب حيث راح يتفقّد البريد، دون أن ينظر إليها مرة أخرى.

لقد كان اليأس كخنجر أصاب قلبها، فقد وصلت متأخرة جداً.

لا، رفضت أن تظن ذلك! فهي تحب بريس وتريده. وهي لم تقطع كل تلك المسافة كي تستسلم الآن.

فحاولت أن تقول له مؤكدة: «لن أفعل ذلك يا بريس.» لكن صوتها راح يرتجف كثيراً وتابعت: «أنا... أنا أحبك.»

أخذت تلك العينان الزرقاوان ترتجفان بينما كانتا تنظران إليها، ليقول بعد ذلك: «حقاً؟ وماذا، إذا سمحت لي أن أسأل، يعني هذا؟ ماذا يطلب مني أن أتوقع؟ امرأة محبّة تقدّم لي حياتها؟»

أخذت أدريانا ترجوه حتى يصدّقها.

فعبس نتيجة تصرّفها هذا وقال: «لا أعتقد ذلك. أن تلعبي دور الزوجة اللطيفة الخاضعة ليس من طبعك، أليس كذلك؟ إذاً أين يؤدي بنا ذلك؟ ماذا، أسأل نفسي، ما هو الهدف وراء بعثة الحب هذه؟»

ثم وضع الرسائل على المكتب وتوجه نحوها وهو يتأملها وفي عينيه نظرات سخرية.

وقف مواجهاً لها وراح يلامس وجهها بأطراف أصابعه وقال: «لهذا السبب جئت، أليس كذلك؟»

لم تستطع أدريانا السيطرة على عقلها لتفكر في ما يجب أن تفعل، فالصدمة والإثارة كانتا تتصارعان في داخلها. لكن كبرياءها صرخت قائلاً: أوقفيه!

فأبعدت نفسها عنه، عيناها محملقتان، وقالت بصوت مرتعش: «لا، لم آت لهذا السبب.»

فظهر الإضطراب الشديد على وجهه نتيجة استهزائه بها.

ثم تابعت قائلة: «بريس، ألم تكن تعني ما قلته قبل أن ترحل؟» ثم صرخت: «ألم تعد تحبني؟»

فرد قائلاً: «آه، أجل، لقد عنيت ما قلته قبل أن أرحل. وما زلت أحبك، أكثر من أي وقت مضى! لكن هل نسيت كم مضى على رحيلي؟ أنا لم أنس. لقد مضى على ذلك عشرة أيام. مئتان وأربعون ساعة... أمضيت كل تلك الساعات وأنا أحبك وأريدك وأتمنى أن تأتي إليّ أو تتصلي بي أو تراسليني. أو أي شيء آخر!»

مدّ يديه وحضنها، وعلى وجهه ملامح الغضب الشديد وقال: «أنت لا تعرفين معنى الحب، يا سيدتي. الحب لا يعني أن يتنازل الإنسان عن كبريائه. الحب لا يعني أن تتركيني لأيام دون أن تراسليني أو تتصلي بي. الحب لا يجعل المرء يائساً لأنه لن ينجب أطفالاً، وذلك لأن المرأة الوحيدة التي يريدها أن تكون والدتهم لا تريد إنجابهم!»

ثم أبعدها عنه، وضرب يديه على المكتب قبل أن ينظر

إليها ثانية ويقول: «أخرجي من هنا. أخرجي من هنا قبل أن أفعل شيئاً أندم عليه حقاً.»

فنظرت إليه أدريانا، وقلبها يخفق بسرعة، ثم قالت بغضب شديد: «لا تكلمني بهذه الطريقة يا بريس ماكلين! ولا تجرؤ وتكلمني عن الندم! فأنا أعرف عن الندم في هذه اللحظة أكثر منك. أنا أندم على كل مرة نظرت فيها إليك. وبالطبع أندم على اللحظة التي وضعت فيها يدي في يدك عندما كنا عند ذاك الممر. وسأندم طوال عمري على مجيئي إليك اليوم. لقد جئت بدافع حبي الكبير لك، أيها المجنون. وما كانت ردة فعلك؟ رميت ذلك الحب في وجهي! حسناً، سأحتفظ به، شكراً جزيلاً، وآمل في المرة المقبلة أن أجد رجلاً يقدّره أكثر مما فعلت أنت!»

ثم استدارت وتوجهت نحو الباب، رأسها مرفوع، بكل كبرياء لكن قلبها مهشّم.

فقال بريس بصوت يائس تغلغل إلى روحها: «لا تذهبي!»

فتوقفت للحظة، ثم مشت.

تحرّك الهواء في الغرفة بشكل عاصف عندما ركض بريس للإمساك بها، ثم أدار وجهها نحوه وحاصرها عند الباب. قائلاً: «لا أستطيع أن أتركك تذهبين.» ثم راح ينظر إلى وجهها بعينين ثائرتين وتابع قائلاً: «أنا أحبك، يا أدريانا لا أستطيع أن أعيش من دونك. الأيام العشرة الأخيرة كانت كالجحيم. صدقيني!»

وفجأة أصبحت يداه في شعرها وراح يقبلها بجنون. وقال: «قولي لي ماذا تريدين، وسأعطيك إياه. قولي لي ما يجب أن أفعل... وسأفعله.»

ثم عاد يقبلها بجنون.

أما أدريانا فقد كانت مذهولة، من الصدمة والإثارة التي ملأتاها. كانت يداها في شعره وتبادله القبلات.

بعد قليل حاولت التراجع وهي تقول: «لا، لا!» فهي لا تستلم، وهناك الكثير للاتفاق عليه.

توقف عن تقبيلها، لكنه لم يتركها تذهب، وراح ينظر إليها بعينين مصممتين وغاضبتين. ثم ظهرت فجأة ابتسامة لطّفت وجهه. توجها نحو الأريكة البنيّة الكبيرة وجلسا عليها وقال: «دعينا نوضح كل شيء الآن. أتحبينني؟»

فهزت رأسها إيجاباً.

«وستتزوجين مني؟»

فهزت رأسها إيجاباً مرة ثانية.

«وستنجبين أطفالي؟»

فابتسمت وهي تقول في نفسها انها لم تنس ما قاله منذ لحظات، عن التنازلات التي هو جاهز لتقديمها. ثم سألته: «كم طفلاً تريد؟»

فتنهّد تنهيدة عميقة وسعيدة وقال: «ما الذي كنا نتناقش حوله إذاً؟»

«أجل ما هو؟»

«ما الذي تخططين له يا أدريانا وينسلو؟»

فأمسكت يديه وراحت تحركهما على ذراعيها وقالت: «لا شيء، كما ترى.»

فضحك وقال: «لا يمكنك أن تخدعيني، يا ابنة المدينة. فأنا أفهمك.»

لم تفعل شيئاً عند قوله هذا سوى الابتسام.

«لطف منك أن تدعو آلان لحفل زفافنا يا بريس.»

«إنه ليس شخصاً سيئاً إلى هذا الحد. لقد تغيّر.»

«أنت تقول ذلك الآن لأنك تعرف أنني لم أحبه يوماً.»

«أجل.»

«هل رأيت كيف نظرت إيبوني باعجاب إلى آلان عندما لم يكن ينظر إليها؟ أنا أراهن أنها تحبه. كذلك ألم يكن آلان في غاية اللطف معها حين دلقت الشراب على فستانها؟»

«لكم أنت رومانسية، يا أدريانا.»

«أنا فقط أريد آلان وإيبوني أن يكونا سعيدين مثلنا.»

فقال متثائباً: «لا تقلقي بشأن آلان كارستيرز فهو ليس من الأشخاص الذين ينتهون من علاقة ما خاسرين.»

فرفعت أدريانا رأسها عن كتف بريس ونظرت إليه وقالت: «ألا تريد أن تنام؟»

«لماذا أفعل ذلك الآن؟ إنها فقط الساعة الثالثة فجراً، فقد كان يوم أمس حافلاً بالأحداث بالنسبة لنا، ابتداء من حفل زفافنا في دوفر داونز، ثم حفل الاستقبال، ثم توجّهنا إلى سيدني.»

«حسناً، علينا أن نتأكد، أليس كذلك؟ فرغم كل شيء، اليوم هو أفضل أيام حياتي. لقد حدّدته على روزنامتي.»

«لقد قلت انني أريد إنجاب أطفال يا أدريانا. لكنني لم أقصد أنني أريد طفلاً كل تسعة أشهر ابتداء من ليلة زواجنا!»

أطلقت تنهيدة سعيدة، وقالت: «لقد كان زفافاً رائعاً، أليس كذلك؟»

«أجل.»

«أمي تحبك.»

«أجل.»

«حتى اخوتي. رغم أني أعرف السبب. لم يكن عليك أن تقدم لهم عملاً، أتعلم ـ فهم لا يستحقون ذلك.»

«كل شخص منا يستحق أن يُمنح فرصته يا أدريانا. ومن ثم الأمر منوط بهم أن يغتنموها أولاً، إضافة إلى ذلك، فالأمر مجرد نقود.»

أحبت أدريانا نظرة بريس إلى المال. فشعاره كان ما يكفي يكفي، وهما كما يقول لديهما أكثر من كفايتهما، فلماذا لا يوزعانه بعضه؟

«أنا أحبك، يا بريس ماكلين. أحبك لدرجة أني مستعدة أن أسامحك لأنك كنت يوماً زير نساء.»

فضحك وقال: «ما الذي يجعلك أكيدة إلى هذا الحد من أنني تغيّرت؟»

قالت: «لكنك تغيّرت، أليس كذلك يا عزيزي؟ ما رأيك لو تخبرني بالتفصيل عما قمت به في السنين الخوالي عندما كنت تتجوّل مثل ما نسميه في سيدني كازانوفا؟»

«إذا اعترفت بذلك فهل سترحمينني؟»

«ربما.»

«حسناً ـ إذاً، لنرجع إلى الأيام الخوالي حيث بدأت مغامراتي مع السيداتي السمراوات، ثم تحوّلت إلى النساء الصهباوات. وأخيراً إلى السيدات الشقراوات. لكن رفيقتي الحالية خارج هذه المجموعة، بالطبع.»

«بريس! لا يعجبني ذلك.»

www.elromancia.com

«ولا أنا، يا عزيزتي. دعيني أقول لك أنني لا أحب أن أذكر ما مضى وانمحى. وأنا غير مهتم بمعرفة مغامراتك الماضية يا أدريانا. فما أهتم له هو الحاضر. الحاضر والمستقبل. كل ما سأقوله لك هو أنه لم يكن هناك أي امرأة في حياتي تقريباً منذ اثني عشر شهراً قبل أن ألتقيك.»

«ولا امرأة؟»

فقال مؤكداً: «ولا امرأة.»

لقد دُهشت أدريانا وكذلك كانت مسرورة للطريقة التي يتصدى بها بريس لها. فقد أغرمت به عندما كان في أسوأ صورة، لكن في قرارة نفسها، لم تكن تريده أن يتغير فعلاً، لأنها أحبت قوته، رجولته المسيطرة، تصميمه. وهي لن تتغيّر كذلك.

ثم قالت: «أهذا كل شيء يا بريس ماكلين؟»

«أقسم بشرفي.»

«حقاً؟»

«حقاً. فعلى امرأة غيورة مثلك أن تعرف أنه ليس من السهل الحصول على النساء هنا في دوفر داونز وقبل أن تسألي عن ذلك، أقول لك لا، لم يكن هناك أي علاقة مع هيلين. ليس لأنها ليست فتاة جذابة، بل لأنني أعرفها منذ زمن بعيد جداً وكنت أنظر إليها دائماً على أنها أختي الصغرى أكثر من فتاة عادية.»

وغمر وجهها بيديه ثم قبّلها، قائلاً: «لن أرغب في أحد غيرك يا أدريانا، أبداً. أحبك بجنون. انسي الماضي، الماضي انتهى، لكلينا أنت وأنا. اليوم هو اليوم الأول لما تبقى من حياتنا.»

اعترى أدريانا سعادة عارمة لفكرة أنها ستمضي بقية حياتها مع هذا الرجل الرائع. وتساءلت كيف سيكون أطفاله؟ فقد كانت هذه الفكرة تهزّها لدرجة أنها إذا لم تكن قد قابلت بريس، ولم تُغرم به، لما فكرت أبداً بإنجاب طفل. لكن الفكرة الآن هي هدف يمنحها الاستقرار أكثر من أي مهنة أخرى.

قالت والفرح يغمرها: «أنا مغرمة بأروع وأكثر الرجال وسامة في العالم كله.»

تمـــت

www.elromancia.com